دُروسٌ مِنْ هَدْيِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

سِلْسِلَةُ دُرُوسِ رَمَضَانَ

(ٱلدَّرْسُ ٱلعُشرُون)

سُورَةُ النِّسَاءِ

مِنَ الآيَةِ ﴿١٣٥﴾ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ

أَلْقَاهَا ٱلسَّيِّد/ حُسَيْن بَدْرِ ٱلدِّين ٱلحُوثِي

بِتَارِيخ: ٢٠ رَمَضَانَ ١٤٢٤ هـ

المُوَافِق: ١٤/١١/٢٠٠٣ م

ٱلْيَمَن - صَعْدَة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،
وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

هذه السورة – كما قلنا بالأمس – من أعظم سور القرآن الكريم، مليئة بالتوجيهات، مليئة بالتشريعات، وتناول فيها مختلف القضايا من داخل الأسرة إلى داخل صفوف الأعداء: مشركين، يهود، نصارى كيفما كانوا؛ ولأن دين الله سبحانه وتعالى هو يُعتبَر ديناً عملياً، ليس فقط مجرد توجيهات؛ لأن الله سبحانه وتعالى كما قال عن نفسه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران:١٨) قائماً بالقسط، ليس فقط أن تقول: مفتياً أو مخبراً. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ لأن هذا الدِّين هو دين للحياة، فيجب أن تكون مسيرة الحياة قائمة على أساس توجيهاته وتشريعاته وهدايته؛ ولأن المؤمنين هم جنود الله، ومعنى أنهم مؤمنون: أنهم مؤمنون بالله، مؤمنون بهداه، بتشريعاته، مؤمنون بما يريد أن يكونوا عليه، ما يريد منهم وكيف يفهمون هذا الدِّين أنه دين عملي، فكما قال عن نفسه سبحانه: أنه قائم بالقسط كذلك أمر المؤمنين أن يكونوا أيضاً قائمين بالقسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(النساء:١٣٥) قوامين: تعملون لإقامة القسط، القسط عبارة شاملة: إنزال كل شيء في مكانه، قد تكون هذه العبارة أشمل من كلمة (عدل) وإن كانت تُفسَّر في كثير من المواضع بأن معنى القسط هو: العدل.

فهذا يُعتبَر أمراً صريحاً وأمراً يُقدَّم في غاية الأهمية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ فيجب على المؤمنين في البداية: أن يفهموا بأن الطرف – في هذه الأرض – المعني بإقامة القسط هم المؤمنون، لا يكونون منتظرين أن هناك أطرافاً أخرى هي التي تقوم بالقسط، منتظرين لأمريكا لتقيم القسط، أو منتظرين لإسرائيل، أو لأوروبا، أو لأيِّ أطراف أخرى! إقامة القسط مسؤولية ملقاة على عاتق المؤمنين، والتفريط فيها يؤدي إلى عواقب سيئة جداً على المؤمنين.

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُن غَنِيًّا أَو فَقِيرًا فَاللَّهُ أَولَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء:١٣٥) فإن إقامة القسط على أيدي المؤمنين هو يمثل شهادة لله سبحانه وتعالى بأنه قائم بالقسط، قال سابقاً: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران:١٨) لأن إقامة المؤمنين للقسط إنما يعني ماذا؟ إنزال تشريعه، تطبيق تشريعه، تطبيق توجيهاته، تطبيق هداه؛ ليتجلى القسط فعلاً في واقع الحياة، وأن الله قائم بالقسط، وأن تدبيره وتشريعه وتوجيهه وهداه كله إقامة للقسط، وكله قسط، وإلاّ فقد يُعطي الناس صورة أخرى عن الله وعن دينه، وللأسف كما هو حاصل، المسلمون الآن أصبح واقعهم بالشكل الذي يستغله أعداء الدِّين للهجوم على الإسلام، بل أصبحوا إلى درجة أن يعملوا داخل المسلمين أنفسهم لإبعادهم عن هذا الدِّين، بأن هذا الدِّين هو هكذا، أن يجعلوا واقع الناس وما المسلمون عليه اليوم يمثل الدِّين (ولاحِظوا كيف هذا الدِّين).

هذا يتنافى منافاة بشكل واضح مع ما يريد الله ويريد للمؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ ليكونوا شهداء بالقسط الذي هو من عنده ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ شهداء لدينه، شهداء لرسوله، وألاّ يتوانوا في إقامة القسط في القضايا الكبيرة والصغيرة؛ لأن الموضوع يمثل شهادة ﴿وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ أن تَقبَل أنت أن يؤخذ منك الحق، وأن تعطي الحق، وتَقبَل أنت إقامة القسط على نفسك، إقامة الحق على نفسك ﴿أَوِ﴾ على ﴿الْوَالِدَينِ﴾ أحد من والديك ﴿وَالأَقْرَبِينَ﴾ لا يحصل أيُّ تقصير في هذا؛ لأن التقصير في هذا في الأخير يُقدِّم صورة سيئة عن دين الله، وبالتالي يجعل الآخرين بدل أن يتأثروا بهذا الدِّين وينجذبوا لهذا الدِّين يرون صورة سيئة من خلال أعمال الناس وهم يبتعدون عن القسط؛ فيبتعدون عن الدِّين، ثم يتجهون أيضاً لمحاربة هذا الدِّين وللدعاية والتشويه لهذا الدِّين.

سواءً كان الإنسان أو الوالدان أو الأقربون ﴿غَنِيًّا أَو فَقِيرًا﴾ يجب أن يُقام القسط عليهم، لا يقال: الغني نستحي منه، أو يقال للفقير: نشفق عليه لأنه مسكين ﴿فَاللَّهُ أَولَى بِهِمَا﴾ هو أولى بعباده، والكل هم عباد له، وكل الناس هم مِلْك له، فهو أولى بهم منكم، فإن كان هناك رحمة فهو أرحم، وإن كان هناك عقوبة فهو أولى، ليس أحد من الناس أولى بنفسه من الله فضلاً عن أن يكون أولى بقريبه أو والده أو ولده أو صاحبه من الله، فالله هو أولى بالناس جميعاً فيجب أن تُطبَّق أحكامه على الناس جميعاً.

﴿فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾ يميل بكم إلى ألاّ تعدلوا ﴿وَإِن تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

وهذه هي تهديد في نفس الوقت، خبير بأعمالكم كلها، خبير بموقفك أنه منطلق من هوى أو عاطفة لقريب أو غني أو أيِّ شيء من هذه، لماذا؟ لأن القضية كبيرة: إقامة قسط، شهادة لله.

هي تُفسَّر هنا عادة بمعنى: أداء الشهادة (أشهد لله أن كذا كذا) ولو على نفسك، أو والديك، أو...إلخ. أداء الشهادة هو مِن إقامة القسط، أداء الشهادة عندما تكون شهادة حق هي واحدة من القضايا التي يُعتبَر أداؤها إقامة للقسط، لكن ما تعنيه الآية بشكل أكثر هو: أن يفهم الناس أنهم بإقامتهم للقسط يمثلون شهادة لله أنه قائم بالقسط.

عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ بالتأكيد أنه أمْر أن يعملوا ويوفروا كل ما لا بُد منه في أن يكونوا قوامين بالقسط، وقد وجَّه في آيات أخرى كثيرة: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤) وجَّه إلى الطريقة بشكل متكامل؛ لأنه سبحانه وتعالى عندما يوجه فلا تكون القضايا هكذا مفتوحة، بل يُبيِّن للناس كيف تكون طريقهم من أجل أن يكونوا بالشكل الذي يمكّنهم من إقامة القسط، داخل آيات القرآن الكريم، تتطلب إقامة القسط: وحدة الكلمة، تتطلب إقامة القسط: الإخلاص لله، الالتزام بهدي الله، العمل بكتابه، الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله – كما سيأتي بعد – الإيمان باليوم الآخر، وفي نفس الوقت في مجال أن يكونوا قوامين بالقسط هو سبحانه وتعالى وعَد أنه سيؤيد الناس، ويعين الناس ﴿وَإِلَيهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾(هود:١٢٣) ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(آل عمران:١٠٩) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾(آل عمران:١٦٠) ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمد:٧) وهكذا آيات كثيرة.

في مجال إقامة القسط هناك قضايا باستطاعة الإنسان كفرد أن يتناولها: شهادة مثلاً، لديه شهادة حق، أمر بمعروف في متناوله، نهي عن منكر، النصيحة، كثير من القضايا التي بإمكانك أن تتناولها أنت كفرد تناولْها، وهذا لا يغيِّر أن تكون أيضاً في إطار أمة كما أمر الله: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران:١٠٤) فإقامة القسط بشكل كامل يحتاج إلى أن تكون هناك أمة تسير على هديه، تلتزم بشرعه، تبني نفسها على أساس هديه، تبني نفسها؛ لأنه في القرآن الكريم قدِّم للناس الطريقة التي على أساسها تبنى الأمة التي يأمرهم بأن يكونوا عليها ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(النساء:١٣٦) القضية هامة في أن ينطلق الناس ليقيموا القسط؛ لأنها شهادة لله سبحانه وتعالى بأنه قائم بالقسط، ولأن لها أثرها الكبير في بقية عباد الله أن ينجذبوا إلى هذا الدِّين ﴿آمِنُوا﴾ ألم يخاطبهم هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾؟ هنا يوجد شيء أنتم كمؤمنين تعتبرون أنفسكم مؤمنين ومحسوبين على هذا الدِّين الذي هو إسلام ومسلمون ومؤمنون، لكن يجب هنا تفاعل بشكل جِدِّي، اهتمام، توجه عملي، وإيمان بكل ما تعنيه الكلمة يبدأ من ترسيخ الثقة بالله سبحانه وتعالى، إيمان يجعل الإنسان يعرف أن دينه هام جداً، وأن كل قضية في هذا الدِّين هامة، ويعطي كل قضية أهميتها، لا يكون إيماناً هكذا مع تخاذل وحالة لا مبالاة وابتعاد! لا، إيمان بما تعنيه الكلمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(النساء:١٣٦) شبيهة بالآية التي في سورة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَينِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الحديد:٢٨، ٢٩) أي: عندما تنطلقون لتقيموا القسط، ولإقامة القسط يجب أن تكونوا مؤمنين على هذا النحو: إيماناً عملياً باهتمام، برؤية واضحة وصحيحة؛ فإنكم ستحصلون على شيئين: أولاً: الالتزام الدِّيني العمل الدِّيني الذي يكتب الله عليه الأجر الكبير للإنسان، ثانياً: باعتباره يُقدِّم شهادة لله. عندما يقول: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَينِ مِن رَحْمَتِهِ﴾ كفل لكونكم ملتزمين، وكفل لأنكم تُقدِّمون شهادة لله.

إذاً أليست هذه تُعتبَر قضية هامة للمؤمنين أن يحصلوا على أجرهم مرتين خاصة في زمن كهذا؟ في زمن كهذا تحصل حملات دعائية مشوِّهة لهذا الدِّين إلى درجة أنه لا يصلح نظاماً للحياة، ماذا يعني لا يصلح نظاماً للحياة؟ أي: ليس قسطاً ولا عدلاً، ولا فيه شيء، ولا يمثل شيئاً، ولا يصلح أن تقوم عليه الحياة، لا يبني أمة، لا يبني حياة، لا يبني شيئاً نهائياً، حملات دعائية أثرت ربما على الملايين في البلدان الأخرى، وداخل البلاد الإسلامية نفسها؛ حتى أصبحت النظرة إلى الإسلام نظرة وكأنه لا يمثل شيئاً، حتى في هذه الفترة التي فيها الناس يبحثون عن أيِّ مخرج وعن أيِّ حل مما يواجههم من الأمريكيين والإسرائيليين وهذه المؤامرة الكبيرة جداً، ليس هناك التفاتة إلى الدِّين بالشكل المطلوب؛ لأنه أصبح لديهم وكأنه لا يمثل حلاً.

لأن إقامة القسط أمام القضايا الكبيرة، عندما تجد هناك: أن الله وجَّه كيف يقام القسط في داخل الأسرة الواحدة – الآيات التي قبل هذه الآية – حتى لا يحصل هناك ظلم على شخص واحد؛ لتبقى مهما أمكن تبقى بنية الأسرة على ما هي عليه لا تتفكك الأسرة، فلا يكون هناك ظلم على أشخاص فقط داخل الأسرة وألاّ تتفكك بنية هذه الأسرة إلاّ في الوقت كما قال في الأخير: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ﴾(النساء:١٣٠) إذاً أليس هذا الدِّين بالشكل الذي يرعى الأمة؟ الدِّين الذي تراه يهتم بأسرة واحدة كيف لا يهتم بأمة؟! كيف لا يهتم بالبشر جميعاً؟! وهو يُقدِّم لنا صورة عن الأعداء، أليس يُقدِّم لنا صورة عن الأعداء بأنهم لا يتوانون عن استغلال أبسط الأشياء؟ ألم يذكر عن اليهود بأنهم لا يتوانون عن استغلال كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ وعن الشيطان بأنه لا يتوانى عن استغلال بأن يأمر الإنسان بأن يقطع أذن (نعجة) أو (ناقة) أو (بقرة)؟ ما دام فيها ضلال فلن يتوانى عن شيء، ألن يكون الشيطان نشيطاً في القضايا الكبيرة التي تُعتبَر ضلالاً كبيراً؟

فعندما تجد أن الله سبحانه وتعالى يهتم بالفرد الواحد يهتم بالأسرة الواحدة وألاّ يُظلَم شخص واحد داخل هذه الأسرة فكيف لا يكون ضمن إقامته للقسط وتوجيهاته لإقامة القسط ألاّ يكون دينه بالشكل الذي يشكل حماية للأمة ألاّ تُظلَم؟! قال هذا صريحاً في آية: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:١٠٨) وعندما يقول: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ ليس فقط مجرد أمنية مثلما يتمنى واحد منا: (أتمنى ألاّ يُظلَم الناس، لكن ماذا أعمل؟) أمَّا هو عندما يقول: لا يريد، فإنه يُقدِّم للناس ما يجعلهم فعلاً بعيدين عن أن يُظلَموا، يُقدِّم للأمة ما يجعلها بعيدة عن أن تُظلَم.

لكن لاحِظ لَمَّا أصبحت النظرة إلى الإسلام إلى درجة وكأنه لم يعد يمثل حلاً على الرغم من متابعتنا لهذه القضية: من بداية تحرك أمريكا وإسرائيل من أفغانستان إلى العراق وهم إلى اليوم: تحليلات ومحاورات ونقاشات في التلفزيون لا تلمس بأن الإسلام يُقدَّم ولو كحل من الحلول، أكثر الأشياء تكون كلاماً آخَر: إمَّا بأن على هذه الحكومات أن تقيم إصلاحات مُعيَّنة، أو مزيد من الديمقراطية، أو أشياء أخرى، ليس هناك توجُّه إلى أن الله قد جعل دينه هذا بما يُعتبَر حماية للأمة!

ولهذا تجد أن القضية على هذا النحو كل ما يذكر في دينه وهو يأمر الناس أن يتحركوا وهو يأمر الناس أن يقاتلوا أن يجاهدوا فلا يذكر بأنه دفاع عن دينه؛ لأنه يعلم أن دينه هو الذي فيه دفاع عن الناس، وحماية للأمة، وحماية للناس من الأسرة إلى العالمين كلهم كما قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾.

إذاً فالتفريط في مرحلة كهذه يُعتبَر جريمة ربما مرتين أو أكثر؛ لأن معناه أننا سنقدِّم برهاناً للعدو فعلاً الذي يُقدِّم هذا الدِّين بأنه لا يصلح أن يكون نظاماً للحياة، ولا يمثل للبشرية أيَّ شيء، وليس فيه أيُّ حل لمشاكلها لا على مستوى الأسرة، ولا على مستوى الشعب الواحد، ولا على مستوى الأمة، ويكون المسلمون بتفريطهم وابتعادهم عن تفهُّم دينهم يُقدِّمون شهادة للعدو، والله هنا يريد ويوجب عليهم أن يُقدِّموا شهادة له، أليست هذه قضية كبيرة جداً؟ فعندما يتحرك الناس على أساس دينه وتكون حركتهم دائماً أن يحسبوا كل شيء من إيجابيات عملهم أنه بسبب انطلاقتهم على أساس دينه، على أساس كتابه، ما يهدي إليه كتابه، ما يهدي إليه الله سبحانه وتعالى، لا تكون بطريقة (حزب) أو (تنظيم) أو (كيان) مثلما يأتي الآخرون: قيادات عبقرية، سياسيون محنكون، خبراء على خبرات عالية، وأشياء من هذه، لا، أن ينطلق الناس وكل ما لديهم من خبرات كل ما يتحقق على أيديهم من إيجابيات يُقدِّمونه بأنه للالتزام بكتاب الله للسير على هدي الله، بهذه الطريقة فعلاً يحصل الناس على أجرهم مرتين، كم قد تكون للمرة الواحدة عندما يقول: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ﴾ ليس المعنى أنه فقط بالملعقة، الله هو كريم، كم قد يكون الكِفْل؟!

وفي نفس الوقت يبشر الناس بقضية هامة هم يحتاجون إليها في إقامتهم للقسط في نصرهم لله في إقامة دينه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾(الحديد:٢٨) ترى الآخرين يتخبطون في الظلام، وفعلاً نراهم يتخبطون في الظلام، حتى مَنْ هم في أمسِّ الحاجة إلى أيِّ حل يجعلهم بمعزل عن هذا الخطر الكبير خطر (أمريكا وإسرائيل) تجدهم يتخبطون في الظلام ويجلبون المشاكل لأنفسهم فعلاً! فعندما ينطلق الناس على أساس دين الله في ظرف كهذا فإن الله سبحانه وتعالى سيجعل لهم نوراً يمشون به في حركتهم.

سياق هذه الآية باعتبار ما قبلها من الآيات وما سيأتي بعدها شبيه بما قبل هذه الآية التي قرأناها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(الحديد:٢٨) أليست هذه تُعتبَر أشياء عظيمة جداً؟ عظيمة جداً وتتجلى عظمتها في نفس الوقت عندما يقول: ﴿وَيَجْعَل

﴿لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الحياة مليئة بالظلمات، والدنيا مليئة بأمم متخبطة، متخبطين سواءً الظالم أو المظلوم، من يخطط لاحتلال العالم ومن يخطط كيف يدفع عن نفسه هذا الخطر الكبير، أليس الناس بحاجة إلى نور؟ وعندما يقول: ﴿نُورًا﴾ ليس معناه (كشاف) بطاريته ضعيفة أو (شمعة)! بل نور، والنور يكون بمقدار الظلام، الظلام العام لا بُد من نور (كشافات كبيرة) فعلاً، والله سبحانه وتعالى سيهدي الناس، معنى هذا أنه سيهديهم وينير طريقهم عندما يستشعرون أهمية عملهم أنهم سيقدمون شهادة لله.

فيجب علينا جميعاً أن نعتبرها فعلاً - أن يكون عند الناس توجُّه إلى أن يهتدوا بكتاب الله وأن يعملوا على أساس كتاب الله في وضعية كهذه - أن يعتبروها نعمة كبيرة جداً، والمتخاذلون والمبتعدون فعلاً تُعتبَر خسارة كبيرة جداً عليهم، مرحلة حساسة جداً وسائل الدعاية فيها ضد الإسلام وضد نبي الإسلام وضد القرآن نفسه، ألم يصلوا إلى درجة أنهم يريدون أن يفرضوا رُؤاهم هم فيما يتعلق بالقرآن فيُخفوا الكثير منه؟ قد أخفوا الكثير من الكتاب الذي أنزِل على موسى عليه السلام وهو الكتاب الذي يعتزون بأنه نزل عليهم فكيف لا يتجهون إلى إخفاء الكثير من القرآن؟! كيف لا يتجهون إلى إخفاء القرآن بنفسه؟! ضيعوا التوراة فكيف لا يضيعون القرآن؟!

عندما يكون الناس قاعدين متخاذلين معنى هذا أنها خسارة كبيرة جداً عليهم في مرحلة كهذه، فبمقدار ما يكون العمل عظيماً جداً وفضلاً كبيراً جداً بمقدار ما يكون التخلي عنه جريمة كبيرة جداً؛ ولهذا كانت عبارات جميلة من الشباب الذين يسجنونهم عندما يقولون لهم: ما هو الذي يجعلكم تذهبون لتهتفوا بالشعار وأنتم تعرفون أنكم ستُسجَنون؟! يقولون: (القرآن) هذه العبارة هامة جداً.

لاحِظ العبارة كيف توحي بهذا من أكبر قضية إلى أصغر قضية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾(النساء:١٣٥) ﴿وَلَو عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ يعتبرها آخر العملية، أي: من أصغر القضايا، من أكبر القضايا إلى أصغر القضايا يكون فيها إقامة للقسط.

أمام أوامر كهذه أليس الكثير من الناس يقولون: (صحيح، لكن ليس لدينا شيء، ولا نستطيع، ولا بأيدينا شيء)؟ أليس الله يعلم بأن الناس سيقولون هكذا؟ أليس سبحانه وتعالى يعلم بأنه خلَق الإنسان ضعيفاً؟ لكن لم يترك المسألة على هذا النحو، بل قطع كل العلل، قدَّم سبحانه وتعالى نفسه بأنه سيكون هو عوناً للناس، وينصر الناس ويؤيدهم، وقدَّم أمثلة كثيرة جداً لمظاهر تأييده للسابقين من البشر، لمن انطلقوا لإقامة القسط، لمن استجابوا له.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾(النساء:١٣٦) كل واحد منا يجب أن يعرف بأن عليه أن يؤمن إيماناً صادقاً، نحن مؤمنون ولا أحد يقول بأنه ليس مؤمناً، اسألْ أيَّ أحد سيقول بأنه مؤمن، ويَعتبِر نفسه مؤمناً، ولن يرضى أحد أن يقول بأنه فاسق نهائياً أيُّ أحد من الناس، لكن ﴿آمِنُوا﴾ آمنوا إيماناً صادقاً، فعندما يُقرأ القرآن الكريم وتجد فيه هذا الهدى العظيم، تجد فيه الوعود الإلهية، تجد فيه البيان، البيان الذي يُعتبَر في حد ذاته من أعظم التأييد الإلهي، البيان عن واقع العدو، ألم يُبيِّن للناس واقع أعدائهم من داخل أنفسهم: مِن وَهُمْ يتآمرون في داخل أنفسهم إلى النتيجة النهائية بالنسبة لهم؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾(النساء:١٣٦) لأن مهمة الكتاب هو أن يرسِّخ إيمانك بالله سبحانه وتعالى ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ ألسنا مؤمنين بالله وكتابه ورسوله؟ لكن هنا يقول: ﴿آمِنُوا﴾ إيماناً صادقاً به، وبـ﴿الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ هذا القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ يكون مؤمناً بأن الله قائم بالقسط على طول تاريخ البشر وقائم بالقسط من قبل أن يستخلف بني آدم على الأرض. ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الكتاب هنا: جنس الكتاب الذي يشمل كل الكتب التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه من الماضين.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا﴾(النساء:١٣٦) ضياع، ضياع إلى النهاية بكل ما تعنيه الكلمة، لاحِظ هنا وهذا من الشواهد لمعنى كلمة ﴿ضَلَّ﴾ كلمة ضل في اللغة تعني: الضياع، والضياع يعني: أن تضيع الأمة في كل المجالات التي كان يمكن أن تحصل عليها لو اهتدت بهدى الله، تجدها مجالات الحياة كلها.

كلمة ﴿ضَلَّ﴾ في اللغة تعني: الضياع، لا تعني في اللغة العربية ضل، أي: كفر، ضل، أي: نافق، لا. الكفر يقال له ضلال، النفاق يقال له: ضلال، الفسق يقال له: ضلال، ارتكاب المعصية يقال لها: ضلال، أليست هذه الأعمال كلها ضياعاً؟ ضياع للإنسان لحياته في هذه الدنيا وفي الآخرة، يضيع عنه كل ما كان سيحصل عليه

من أشياء عظيمة جداً لو سار على هدى الله؛ لأنه غير ممكن أن تأتي كلمة (ضلال) هنا بعد قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ لو كانت كلمة (ضلال) تعني (كفر) لكان معنى الآية: ومن يكفر بالله فقد كفر كفراً بعيداً! وهذا لا يستقيم. كلمة (ضل) قدِّمت في التعريفات الاصطلاحية لها تعني: هذا، ثم أصبحت وإذا هي مرتبطة فقط بالقضايا العقائدية (ضل) أي: كفر (ضل) أي: نافق، أي: فسق فقط! يجب أن يعرف الناس أن الضلال معناه: الضياع؛ ولهذا يذكر في القرآن الكريم الخسارة، أليس الله يذكر الخسارة بالنسبة للإنسان؟ خاسرين، ضائعين، تائهين، ويذكر الضلال حتى في جهنم: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَومَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾(القمر:٤٧، ٤٨) أليس هذا ضياعاً؟ أليسوا أضاعوا أنفسهم؟

إذاً فمعنى هذا أنه يجب أن تفهم أن الضلال معناه: الضياع لكل ما كان نجاة وفلاحاً وعزة وزكاءً لنفسك واستقامة لحياتك وسعادة لحياتك في هذه الدنيا وفي الآخرة.

لاحِظوا هنا كيف أنه ممكن أن يأتي كفر في هذا، عندما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ من الممكن أن يأتي رفض مع اسم إيمان، والناس هم نفوسهم يطلقون على أنفسهم اسم مؤمنين، ويكونون في نفس الوقت في واقعهم كما لو كانوا كافرين بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، فيكونون ضالين ضلالاً بعيداً، وفي حالة من الضياع الرهيب، الضلال البعيد وإن كانوا لا يزالون يطلقون على أنفسهم اسم مؤمنين.

معنى هذا أنه يجب أن نفهم الدِّين فهماً صحيحاً، ولا يمكن أن نحصل على فهم صحيح إلاّ من خلال كتاب الله؛ لنعرف أن دينه هو واسع جداً جداً لكل شؤون الحياة؛ ليكون الناس مهتدين ومفلحين وناجين في كل شؤون الحياة. فالهدى واسع جداً جداً، يقابله ضلال واسع جداً جداً.

بعض الناس قد يعتقد بأن الكلمة قُدِّمت على هذا النحو: كلمة (ضل) معناها: كفر أو عصى، على عقيدة باطلة فقط، وأنه ما دام قد أصبح مؤمناً بالله، وأنه لا يُجبِر أحداً، وأنه لا يُرَى، وأنه من دخل النار لا يخرج منها، وليس هناك شفاعة لأهل الكبائر... فـ(الحمد لله) قد أصبح مؤمناً، لم يعد في ضلال.

نحن معتقدون لهذه العقائد ونعيش حالة ضلال، ألسنا الآن جزءاً من أمة ضائعة؟ ضائعة فعلاً بكل ما تعنيه الكلمة، إلى درجة أنها ترى بني إسرائيل أمامها يتجهون إلى التحكم في مساجدها، التحكم في مدارسها، يفرضون كل ما يريدون داخل مساجدها ومدارسها؟ أليس هذا ضلالاً؟ أليس معناه ضياعاً؟ ضياع، نجد أنفسنا في وضعية: متخلفين، ممزقين، مفرقين، إلى آخر ما تعنيه كلمة (ضلال).

إذاً يمكن أن يكون هناك ضلال مع وجود معتقدات كمعلومات، أليس كل واحد منا مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله؟ أليس هذا عنواناً واضحاً؟ لكن الإيمان الفعلي، وليس فقط مجرد معلومات، لا تعتقد بأنك (الحمد لله) لم تَعُد في ضلال ما دام عندك معتقدات صحيحة؛ لأنها عندك إنما هي عبارة عن معلومات فقط، يجب أن تتحول إلى ماذا؟ إلى معلومات تجعلك تعمل، تنطلق على أساسها.

لو نأتي – وقد قلنا في دروس سابقة – إلى واقعنا لوجدنا أن داخلنا كفراً مبطناً فيما يتعلق بالله. هنا يقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ عندما تتحدث مع الناس ويقولون: (نحن لا نستطيع، وليس بأيدينا شيء، وليس لدينا، ولا، ولا...إلخ) أليس كذلك؟ حَسَناً، لو كنتَ مؤمناً بالله لكان يجب أن يكون لديك ثقة بالله، لماذا نراك لا تُقدِّم الله سبحانه وتعالى كنقطة قوة على الأقل؟! كنقطة واحدة على الأقل! يسرد كل نقاط الضعف، لا يستشعر أن الله يمثل قوة عندما يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ليس لديه إيمان يجعله واثقاً – فعلاً – بالله عندما يقرأ وعوده مثل هذه الآية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٤٠) ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمد:٧) آيات نقرؤها ونؤمن بالله لكن لا يوجد الإيمان المطلوب الذي أمر به هنا في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا...﴾(النساء:١٣٦).

عندما نكون مؤمنين صادقين بالله فستحصل الثقة القوية بالله، وسترى داخل كتابه الأمثلة الواسعة جداً جداً التي تمثل مظاهر من مظاهر تأييده لأوليائه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧) أليست هذه واحدة؟ ويُقدِّم وراءها عدة أمثلة، متعددة المواضيع.

عندما يقول في هذه الآية بالذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾(الحديد:٢٨) أليس هذا وعداً إلهياً ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾؟ لكن يحتاج إلى إيمان من هذه النوعية التي أمر بها بعد قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾(النساء:١٣٦) والذي أمرنا به بعد هذه الآية

بعدما قال: آمنوا، اتقوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ تكون النتيجة في الأخير وإذا بك في واقعك، وإذا بي في واقعي ليس لدي ثقة بالله نهائياً، فكأن الإنسان في واقعه كافر بكل وعود الله، وبقوة الله، وبعزة الله، وبغلبته على أمره، وبقهره لعباده، إذاً أليس هذا كفراً داخلياً؟

تجد أنه في الأخير يَبرز الشيء الذي في أعماق الإنسان، والذي تشير إليه هذه العبارة، أليست تصل إلى الأعماق؟ لأنه فعلاً يكون في أعماق الإنسان أحياناً شيء هو كفر مبطن، وهو في نفس الوقت الذي يحكم تصرفاته، ويحكم مواقفه، لم تعد الأشياء الأخرى إلاّ مجرد معلومات ولقلقة باللسان فقط.

الناس القاعدون ما هو الذي يتحكم فيهم فيجعلهم يقعدون عن أن يعملوا أيَّ عمل لله وفي سبيله؟ ما هو؟ أليست الأشياء الداخلية هناك؟ التي تأتي هذه الآية فتحاول أن تصل إليها وأن تزيحها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ أنت مؤمن لا يزال داخلك واحد لا بُد أن يؤمن، داخلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾(النساء:١٣٧) لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو بالشكل الذي يجعل الإنسان يستقيم ويثبت، على الإنسان المتأرجح أن يعرف أن الله غني عنه، وأنه سيكون هو الخاسر في الأخير ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ لم يعد عندهم إلاّ ازدياد كفر ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ نعوذ بالله.

هذه حالة تتناول الإنسان عندما يكون متردداً متأرجحاً لا يحاول من البداية، من البداية أن تقطع على نفسك أن تتجه إلى أن تهتدي بهدى الله، وتتزود بهدى الله، وبمعرفة صحيحة، ويكون إيماناً عملياً. عندما تكون فقط تتسمَّع وتنظر كيف! سمعتَ كلمة من عند الآخر فغيَّرتْك، وجئتَ مرة أخرى وسمعتَ كلمة فشدَّتْك قليلاً، لكن ما زلت متردداً (ربما لا يزال هناك شيء) وذهبَ إلى هناك وغيَّروه. هذه النوعية قد ينتهي إلى أنه فعلاً لن يهتدي.

الإنسان يقطع على نفسه بأن يهتدي بهدى الله، وأن يصل إلى الدرجة التي قال الله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾(المائدة:٥٤) لا يؤثر فيه أيُّ شيء، أيُّ مقولات حتى لو جاءت فتوى من علماء، أو جاءت بيانات من مثقفين، أو جاء تهديد، أو جاء ترغيب، أو جاء لوم من قريب أو بعيد، لم تعد تؤثر فيه نهائياً.

لأنه فعلاً في مجال إقامة القسط، قد يكون الكثير من الناس معرَّضين للتأرجح، بعضهم يقول: (هذا غير ممكن، ما زال هناك علماء آخرون: سيدي فلان، وفلان، وفلان، هذا غير ممكن) وظل يسمع بأذنه فقط عند مَن يحاول أن يوجهه، ولا تزال تلك الحالة داخله، عاد إلى داخله: (كيف أن هذا على الحق وفلان وفلان قاعدون؟! لو كان ذلك الموقف صحيحاً لَمَا كانوا قاعدين) ثم قعد! هذه النوعية المتأرجحة ليست ممن يمكن أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ على الإطلاق.

ولأنها في الواقع ليست قضايا كلام فلان وكلام فلان، إن القضية في الواقع تكون إيماناً أو كفراً، يُقدَّم لك شيء من كتاب الله، من هدى الله، أليست قضية إيمانية؟ أليس الابتعاد عنها يُعتبَر كفراً، رفضاً لها؟ لأن الشخص في الواقع لا يكون متردداً بين (أشوار) أو آراء، بل هو يتردد في أجواء ماذا؟ إيمان أو كفر.

معنى هذا ماذا؟ أن الإنسان يحاول من البداية أن يحسم الموضوع مع نفسه، هو أنَّ همه أن يؤمن بالله إيماناً صادقاً وبرسوله وبكتابه الذي نزّل على رسوله وبالكتاب الذي أنزل من قبل، والإيمان الذي يوجِّهه القرآن إليه، ويهديه القرآن إليه ببيانه، بتوضيحه، بأمثلته الكثيرة جداً. بهذه الطريقة يستطيع أن يقيِّم عندما يرى الآخرين ويرى القرآن يستطيع أن يعرف أن أولئك ليس لديهم شيء عملي، ليس أمامه إلاّ أن يقعد ويترك ما قد سمعه من القرآن، هل يمكن لأحد أن يقول: يوجد طرف آخر يمكن أن يُقدِّم شيئاً عملياً هو من نفس القرآن؟ لا.

نرى الكثير – ممن يُفترَض أن يكونوا متحركين ممن هم مؤمنون – قاعدين، وآخرين يتحركون حركات مشبوهة لا يُوثق بها؛ لأن قضية إقامة القسط قضية ليست سهلة، وليست قضية لأيِّ أحد يدَّعي بأنه (أنا قوام بالقسط، وأنا مجاهد لأعداء الله) وعناوين من هذه، وقلنا سابقاً عندما يقول الله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(النساء:١٣٥) هو يرسم الخريطة كاملة، يرسم الطريق كاملة التي يجب أن يكونوا عليها ليكونوا قوامين بالقسط، ليست قضية تخضع لادعاءات أحد، أبداً. بل هي قضية رسم طريقتها في القرآن الكريم نسير عليها، ومن يريد أن يكون من القوامين بالقسط يجب أن يسير عليها، وإلاّ سيكون ضحية فيصبح في الأخير من هذه النوعية: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾(النساء:١٣٧).

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء:١٣٨) المنافقون نوعية سيئة جداً، ويُقدِّمهم خاسرين، ويُقدِّمهم

لعَّابين في القضايا الخطرة، وفي القضايا العامة، عندما يقول للناس: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ للمؤمنين، المنافقون كيف سيكون عملهم؟ أليس عمل خلخلة يُضعف الناس عن أن يكونوا قوامين بالقسط؟ لا تكون نتيجة عمل المنافقين هي أنهم يشدون المؤمنين ليؤدوا دورهم وواجبهم ويقوموا بالقسط، أبداً، يكون عملهم ماذا؟ خلخلة، سواءً بشكل دعاية، أو بشكل كيفما كان، أحياناً يكون بأغطية دينية، الشيطان نفسه يستخدم أحياناً غطاء دينياً.

فهنا تهديد للمنافقين: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٣٨، ١٣٩) وهناك قدَّم من البداية بأن المؤمنين فقط هم الذين يمكن أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ المؤمنون هم الجند الذين يمكن أن يكونوا قوامين بالقسط هنا في هذه الأرض كجنود لله، و﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ القائم بالقسط. فهؤلاء المنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وهذا من خسارتهم ومن حماقتهم، لماذا تتخذ الكافرين أولياء؟! هل تريد أن يقيموا القسط، أو أنك تطمع بأنهم سيقيمون القسط؟! أبداً.

إذاً فمعنى هذه بأن المنافق نفسه وهو يتجه ويتردد في ولاءاته بما فيها ولاءات كافرين، أنه إنسان لا تهمه قضية إقامة قسط، إقامة القسط مَن هو ميدانها؟ أليسوا هم الناس؟ أليست إقامة القسط في مصلحة الناس؟ إذاً فمعناه أن المنافقين نوعية لا يهمهم مصلحة الناس على الإطلاق، وأهم مصلحة للناس هي أن يكون القسط قائماً فيما بينهم.

عندما يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أليست هذه الآية تعني: أن فئة المؤمنين هم فقط من سيكونون قوامين بالقسط، معنى هذا أن يكون موقفك أنت من أعداء الله بأنه لا يمكن – مهما كانت دعاياتهم جذابة أنهم يريدون إقامة قسط أبداً – أنه لا يمكن أن يقوم القسط على أيديهم، لو كان القسط يمكن أن يقوم على أيدي الكافرين لكانت الدنيا الآن كلها قسطاً وكلها عدلاً، أليست القوة في أيدي الكافرين؟ أليست وسائل الإعلام بأيدي الكافرين؟ والأموال الضخمة والإمكانيات الكبيرة بأيديهم؟ هل هناك قسط، أو هناك ظلم؟ ظلم داخل كل الشعوب وفي كل الدنيا. إذاً فليفهم الناس ونفهم جميعاً بأن فئة واحدة فقط هي التي يمكن أن تقيم قسط الله امتداداً لأمر الله وشهادة لله.

من ناحية الوعي معناه: إذاً عندما يقول لك: (نحن نريد أن نكون محررين، ونقيم ونؤدي حقوقاً، ونعطي الآخرين حقوقهم، وحقوق مرأة) وأشياء من هذه، أليست ادعاءات قسط؟ أبداً لن يقيموا قسطاً أبداً، ولو كانوا قوامين بالقسط لكانت الدنيا كلها قسطاً وعدلاً.

إذاً فالمنافقون عادة هم فئة لا يهتمون – على الإطلاق – لا بدين الله ولا بعباد الله ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٣٩) وكان الواجب عليهم أن يتخذوا المؤمنين أولياء؛ لأن المؤمنين دائماً ينشدُّون إلى بعضهم بعض ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(التوبة:٧١) يكونون عبارة عن أمة واحدة وكتلة واحدة ليكونوا قوامين بالقسط.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أيبتغون عند الكافرين العزة؟! لا يمكن على الإطلاق ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(النساء:١٣٨، ١٣٩) لو حصل على شيء مؤقت فهي قضية وهمية فقط، وهميات خياليات، العزة هي لله جميعاً وبيده جميعاً ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾(آل عمران:٢٦) يتصور المنافق أنه مُخطِّط تخطيطاً حكيماً أنه سيعتز، ويسير وراء كافرين يتولاهم ولا يدري إلاّ وانهارَ الكافرون؛ وإذا به خاسر، هذا حصل للمنافقين في بداية الإسلام كانوا متشبثين بكافرين وبيهود، وفي الأخير أنهار الكافرون واليهود؛ وإذا بهم خاسرون، كما قلنا أكثر من مرة: القرآن يُقدِّم فئة المنافقين فئة خاسرة بل أكثر الفئات خسارةً على الإطلاق، فئة خاسرة في هذه الدنيا وفي الآخرة؛ لأنه فعلاً لا المؤمنون يعتبرونهم منهم ولا الكافرون يعتبرونهم منهم نهائياً، لا المؤمن يثق فيه ولا الكافر يثق فيه.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾(النساء:١٤٠) أي: نزَّل الله، هذا قد يكون تابعاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ﴾(النساء:١٣٦) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(النساء:١٤٠) إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها من قِبَل المنافقين أو من قِبَل أعداء آخرين فلا تقعدوا معهم، وقد يكون في الغالب من قِبَل منافقين، قد يكونون هم

باعتبار المجتمعات؛ لأن فئة المنافقين عادة تكون فئة داخل المجتمع المؤمن، داخل مجتمع المسلمين، لكن يحصل منهم خوض في آيات الله وتقديمها بشكل مغلوط وتمحُّلات وبما هو في الأخير يُعتبَر كفراً.

﴿فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾(النساء:١٤٠) هذا أضعف الإيمان بالنسبة لك: لا تقعد معهم؛ لأن المنافقين عادة إنما يتحركون ويحاولون أن يحصل كفر واستهزاء وأشياء من هذه للتأثير على الآخرين، أمَّا هم فيما بينهم فقد صاروا منافقين جاهزين ﴿فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ تفوَّت عليهم الهدف الذي يريدونه وهو ماذا؟ محاولة أن يؤثروا عليك نفسياً ويُوجِدوا لديك ارتباكاً مُعيَّناً يجعلك في الأخير ممن: مرة يؤمن ومرة يكفر، مرة إيمان ومرة كفر، وفي الأخير ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾(النساء:١٣٧).

أحياناً قد تصل المسألة - فعلاً - حتى من حيث لا يشعر كثير من الناس أنه قد يأتي مثلاً والناس يتحركون ويوجِّه بعضهم بعضاً، أو فئة مُعيَّنة تتحرك توجِّه الناس كيف يجب أن يكون إيمانهم بالله، فيأتي الآخرون يُقدِّمون الآيات بشكل آخر هو في واقعه كفر بآيات الله، ألسنا نسمع بمثل هذه من أجهزة الإعلام؟ يتناولون آيات داخل القرآن يقدمونها بشكل آخر: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣) واحدة من الآيات التي يشتغلون حولها ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦) ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾(المائدة:١٣) آيات يختارونها يقدِّمون رؤية عنها هي تُعتبَر كفراً بآيات الله؛ ليجعلوا الناس في الأخير بعيدين عن أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله.

وقد يحصل ما هو استهزاء بها ولو عن طريق الاستهزاء بمن يتحركون على أساسها، عندما يأتي أناس منطلقين من قول الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمد:٧) فيكونون محط سخرية، فهم يسخرون بالآية نفسها، أي: كأنهم يقولون: (أنتم تركنون على هذه الآية وأمثالها)! أليس هذا استهزاءً بكتاب الله؟ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٤٠) يقولون: (هم يركنون على هذه الآية ويعتقدون أنه سيحصل لهم، ويحصل...)! هذا استهزاء.

فيجب أن يكون الإنسان بعيداً عن أيِّ فئة تنطلق هذه الانطلاقة، بمعنى: أن الكفر بآيات الله ليس فقط أنه سيأتي ليقول: إن هذه ليست صحيحة؛ لأن المنافق دائماً يكون عمله عملاً يحاول أن يؤثر فسيحاول أن يعمل بطريقة أخرى يُقدِّم لك الآية بشكل خاطئ، يحرِّف معناها بشكل آخر.

النفاق أيضاً هو يشبه الضلال، الضلال يأتي ضلال مثلاً في زمن مُعيَّن هو ناتج عن أهواء وبغي وحسد، ثم يسير الآخرون على هذا الضلال ابتغاء وجه الله، هذا يحصل، والنفاق أيضاً كذلك، ثم في الأخير يُقدَّم وكأنه هو العمل الذي فيه صيانة الأمة والابتعاد بالأمة عن الشر الكبير، فيشتغل آخرون وفق رؤية كهذه وقد لا يكون هو في نفسه من فئة المنافقين الذين هم مذبذبون - الله أعلم بالنفوس - لأن هذا محتمل فعلاً أن يأتي إنسان يبرز في التلفزيون أو يكتب في صحيفة أو في إذاعة يتحدث واسمه عالِم، شخص قد لا تتهمه بأنه منافق - الله أعلم بالنفوس - لكن قد يكون يتحرك فيما هو في الواقع نفاق، كما أنه يحصل عمل بضلال مع حسن نية وإخلاص.

إذاً النفاق عندما يُقدَّم في القرآن الكريم كيف تكون آثاره - هنا بعدما ذكر: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أليس معنى هذا توجيهاً عملياً يجعل الناس يفكرون عملياً كيف يتحركون ليكونوا قوامين بالقسط؟ - النفاق كيف سيكون أثره؟ أثره أن يجعل الناس يقعدون فلا يتحركون ولا يهتمون، هذا عمل المنافق، وقد يكون هناك نفاق بمعنى أن أصل القضية نفاق وإن كان أحد من الناس يقدِّمها بحسن نية وإخلاص عندما ترى خلاصة ما يُقدِّم أنه يُقعِد الناس ولا يهتمون، ويقعدون و(لا شأن لهم) يمكن أن يُقدَّم نفاق لله، ويمكن أن يُقدَّم ضلال لله فعلاً عندما يكون الشخص غير منتبه.

ولهذا الله سبحانه وتعالى يُقدِّم المنافق باعتبار شخصيته، ويُقدِّم الأثر الذي يؤدي إليه النفاق، النفاق من حيث هو، كما يذكر الضلال وماذا ستكون نتيجته ويذكر المضلين لتعرف المضل، ولتعرف المنافق ولتعرف الضلال وإن قُدِّم من جهة بحسن نية، ولتعرف النفاق ما هو وإن قُدِّم من جهة بحسن نية، أمَّا عندما ترى أنه قد أصبح أمامك ضالاً وضلالاً، مضلاً وضلالاً، ومنافقاً ونفاقاً فإنك تستطيع أن تعرف منافقاً ونفاقاً مع بعض أو تعرف نفاقاً وحده وتعرف ضلالاً وحده.

المنافقون يحتاجون إلى أن يصبغوا نفاقهم بعناوين، شأنهم شأن المضلين؛ لأن النفاق هو وجه من أوجه الضلال، أو صنف من صنوف الضلال يحتاجون إلى أن يُقدِّموا مبررات أنهم مصلحون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾(البقرة:١١) نحن محافظون على المصالح العامة، وهكذا. إذا كان الإنسان لا

يعرف الضلال من حيث هو، لا يعرف النفاق من حيث هو بحيث تعرف أن نتيجة النفاق عادة تكون هكذا، فأحياناً قد ترى شخصية فعلاً قد لا تحتمل فيها هي أنها تتحرك حركة نفاق أو حركة إضلال لكن هو نفسه ممن قد خُدِعوا قد خُدِع هو، فهنا عندما تنظر إليه تقول: (مثل هذا غير ممكن أن يُقدِّم نفاقاً أو أن يكون منافقاً أو أن يكون مضلاً) قد تتأثر، ممكن أن يبقى محترماً لديك، لكن تعرف ما يُقدِّمه وتقيِّمه على أساس هدى أو ضلال أو نفاق وستعرف فتكون بعيداً في نفس الوقت عن ماذا؟ عن أن تتأثر نفسياً فتقبل ما يُقدِّمه وهو في الواقع ضلال وهو في الواقع عملية نفاق باعتباره شخصاً محترماً عندك وكبيراً ولا يمكن أن يكون منافقاً.

هذه قد تحصل؛ ولهذا يأتي يُقدِّم النور من خلال القرآن الكريم عندما يقول: ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾(الحديد:٢٨) وعندما يقول عن القرآن بأنه نور ينير لك كل شيء كل الزوايا التي قد يكون فيها شيء من الضلال (خيط ضلال) أي: يمكن أن تقول: (هذا إنسان محترم) في الأخير تنطلق إلى هذا المحترم تقول له في الأخير: (يا أخي، خلاصة ما تقدِّمه أن الناس يقعدون ولا يعملون شيئاً، هل هذا منطق القرآن: أن يقعد الناس ولا يقدِّمون شيئاً؟!) تذكّره هو إذا كان لا يزال عندك محترماً وما زلت تعتبره إنساناً عظيماً، تذكّره بأن (هذا الكلام لا ينبغي، وأنت كذا، كذا، وإنسان مثلك عليه أن يوجِّه توجيهاً قرآنياً وفق ما قدَّم الله القرآن عليه). هذه ستنسف ما يحصل للكثير من الناس: (لكن ممكن أن يكون سيدي فلان، أو سيدنا فلان، أو المسؤول الفلاني، أو الكاتب الفلاني على كذا...؟!) أليست هذه تحصل؟

إذاً هذه ستنسفها، ممكن أن يبقى الشخص عندك محترماً، فإذا كان محترماً توجِّهه: تُقدِّم له نصيحة؛ لأن كل إنسان بحاجة إلى نصيحة، وفي نفس الوقت تكون بعيداً عن التأثر بما قدَّم؛ لأنه في الواقع يؤدي إلى ماذا؟ إلى أن يخلق أثراً في الناس يخالف ما يريد الله أن يخلقه القرآن في أنفسهم من أثر.

تجد هذه التي ذكرناها كلها الآن لها علاقة بموضوع: إقامة القسط، أو تحول دون إقامة قسط، عندما يكون الإنسان "مَسْمَعاني"[1] لكل من تحدَّث ويتأثر فلا يستنير من البداية، وبداية الاستنارة أن تعزم أنت من داخل نفسك تسليماً لله، وأنك تريد الهدى الذي تتحرك على أساسه، وأن تكون فاهماً أن هدى الله هو عمل وحركة وليس قعوداً.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ قد تتأثرون بهم فتكونون في الأخير بعيدين عن أن تكونوا قوامين بالقسط ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ سيكون الحكم بالنسبة لك كحكمهم، ومصيرك مصيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ هو بيَّن كيف، أن تكون مثلهم فانظر مصيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(النساء:١٤٠).

يُقدِّم نفسية المنافقين، ومن الغريب أن المنافقين يكونون في الوسط المسلم، ومصيرهم هو مصير المسلمين وليس مصير الكافرين في الواقع، فهو في الواقع يتآمر على نفسه في إطار أنه يتآمر على المجتمع الذي هو فيه، بيته أمواله، أولاده، مصالحه، أقاربه، أصحابه، في نفس المجتمع، فيكون متآمراً على نفسه في إطار تآمره على المسلمين، فهو يتربص، أي: منتظر، يهوى أن تحصل لهم ضربة أو أيُّ شيء ولو كان بينهم ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾(النساء:١٤١) ليس لديهم توجه عملي، بل تَرَقّبٌ فقط، يظن أنه مَسِكَ الحكمة و(مَسِكَ العصا من وسطها) كما يقولون، النفاق الآن يسمونه: (يمسك العصا من وسطها) هذا هو نفاق.

﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ﴾ نحن معكم، ونحن منكم، ومؤيدون لكم، وقد سمعتم يوم قلنا كذا، وأشياء من هذه ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾(النساء:١٤١) كأنهم لا يحصل لهم فتح، قد يحصل نصيب في إطار ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١٤٠) ولأسباب من جهة المؤمنين أنفسهم، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٤١) أليس هو الآن يتملق للمؤمنين عندما يحققون فتحاً، يحققون انتصاراً: ﴿أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ﴾؟ وإن كان للكافرين نصيب: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لاحِظ المنافقين فئة كل الفئات لا تعدها منها، أليس هذا خاسراً؟

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَينَكُمْ يَومَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤١) لاحِظ هنا أنه دائماً في أكثر من مقام في القرآن عندما يذكِّر الناس ويوجِّه الناس بالقيام بشيء عظيم ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(النساء:١٣٥) ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ﴾(آل عمران:١٠٤) أو أشياء من هذه، سوف يُقدِّم قائمة من الأشياء التي هي تمثل عوائق، أي: ألم يتحدث عن منافقين وتحدث عن حالات قد تحصل كيف يبعد الناس عنها؟ يقول في الأخير:

---

(١) مَسْمَعاني: من اللهجة العامية: سَمَّاع: كثير الاستماع لما يقال ويتأثر بما يسمع.

وأنتم مستقيمون وثابتون (مؤمنون) وقد ذكر هنا كيف يجب أن يكون المؤمنون، هنا الكلام حول المؤمنين من النوعية التي ماذا؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾(النساء:١٣٦) إلى آخر الآية.

فهؤلاء مهما كانت المؤامرات، مهما كانت أعمال المنافقين - وبالطبع - هو يوجِّه كيف يكون موقف الناس من المنافقين لكنه لا يسمح بأن يصل الإنسان إلى حالة الإحباط: (المنافقون يتحركون، وأعداء حصل منهم كذا، والدنيا مخبوصة، ولم يعد الوقت مناسباً) أليس يحصل هكذا؟ إنما فقط ننتظر حتى يأتي وقت مناسب لا يكون فيه أعداء، ولا منافقون، ولا يكون فيه أناس، عندما تكون الدنيا فارغة لم يعد فيها أحد، وفي ذلك الوقت يمكن أن يقوم يجاهد في سبيل الله! مَن هو الذي سيجاهده؟!

على الرغم من كل هذه الأشياء التي قد تراها أمامك عوائق أو مؤامرات خطيرة، إذا كان الناس ثابتين ومستقيمين ومؤمنين هذا الإيمان الداخلي العملي ﴿لَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ أيَّ سبيل نهائياً، معنى هذا بأنه لا يحصل سبيل على المؤمنين إلاّ من جهة المؤمنين هم من يفتحون على أنفسهم هم منافذ، لكن كيف هذا (الفتح)؟ تجد أن القرآن يُقدِّم أن (فتح المشاكل) عندما يحصل تفريط، ويحصل ضعف إيمان، عندما لا يتجهون عملياً، وليس على أساس ما يُقدَّم الآن، الآن تُقدَّم القضية بالعكس: أن تتحرك معناه أنك تفتح مشاكل، لا، فتح المشاكل من خلال القرآن: هو أن يقعد الناس، ولا يتحركون، هو ألاّ يكونوا بالشكل الذي يُعتبَرون مؤمنين صادقين، فعندما يكونون مؤمنين صادقين ويعملون ما بوسعهم ومتجهين لِيُعِدُّوا كل ما يستطيعون من قوة فهذا يعني: لن يحصل على الإطلاق أن يتمكن الكافرون منهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤١).

نحن الآن نرى لهم سبيلاً: خطين مثل الخطوط السريعة، أليست هذه موجودة الآن؟ لأنه لا يوجد هذه النوعية: المؤمنون، لم يعد الناس مؤمنين بما تعنيه الكلمة، هم مبتعدون عن الله، بل عن الثقة، لا يوجد حتى الثقة لا بالله ولا بكتابه ولا بدينه، إلى درجة أنه يمكن أن يمثل حلاً أو يتحرك على أساسه ولو لم يكن إلاّ على أساس أنه إذا حصل شيء نكون في سبيل الله فلا يموت أحد (دون أن يكون لموته فائدة) لم تعد هذه الفكرة موجودة على طريقة: (إذا كنتَ ستموت يوم السبت فيوم الجمعة أفضل لك) حتى هذه الفكرة لم تعد موجودة.

مع أن القرآن يُقدِّم المشاريع كلها إيمانية وتوجيهات للمؤمنين: مشاريع ناجحة مشاريع كبيرة مشاريع نصر.

لهذا نحن نقول: إن علينا أن نتحرك بكل ما بوسعنا، ونعمل بكل ما نرى أنه مؤثر على العدو، نعمل في سبيل الله لنحقق إيماناً لدينا، عندما نرجع إلى كتاب الله نقرؤه ونتأمله لنعرف دينه، ونعرفه سبحانه وتعالى مِن خلال كتابه بالشكل الذي نصل إلى درجة ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ونعمل ما بوسعنا؛ لأنه هكذا من واجب المؤمنين وإن كان عملاً يبدو بسيطاً مثل شعار يرفعه، يقاطع بضائع، توجيهات للناس أن يعودوا إلى دين الله.

فإذا تحقق للناس اسم (إيمان) والله يعلم أن الإيمان درجات والإمكانيات في إطار عمل المؤمنين متفاوتة قد لا يكون بعضها متوفراً لكن عندما يعملون بطاقتهم، وينطلقون بجدية؛ هنا تحقق لهم اسم إيمان فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلاً. عندما يَقعُد الناس وهم يرون عملاً بسيطاً لكنه عمل مؤثر يقول لك: (ماذا سيعمل بأمريكا)؟ قل له: ماذا سيعمل بي أنا أمام الله؟ هذه القضية في المقدمة، يحقق لدي اسم إيمان متى ما تحقق لدي اسم إيمان ورآني الله مؤمناً فلن يجعل للكافر الذي تقول: (إن لديه، ولديه) لن يجعل له سبيلاً على من كانوا مؤمنين، وإن كانت قدراتهم محدودة، إذا قد صار هو يتحرك بطاقته، وليس لديه فكرة تملص ومحاولة الهرب من المسؤولية، يؤدي - فعلاً - العمل في كل ما هو في متناوله أن يعمله، لكن لا تكن القضية عشوائية، بل رؤية واحدة توجه واحد؛ لأنه هناك يأتي خطاب ﴿كُونُوا﴾ ليس المعنى كل واحد من عنده وكل واحد وفق رؤيته؛ لأنه معلوم أن هذا لا يمكن به إقامة قسط، آراء متعددة، خطب متعددة، مواقف متعددة، لا يحصل على الإطلاق إقامة (قبْيَلة) فضلاً عن إقامة قسط بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبشمولها وسعتها.

عندما يقول لك: (هذا الشعار ماذا يمكن أن يعمل بأمريكا)؟! فقل: قد ظهر لنا بأنه مؤثر جداً على الأمريكيين، وظهر أن باستطاعتنا أن نعمل ضدهم حتى بكلمات نرددها مثلما قلنا الليلة: عندما ترى حادثاً مُعيَّناً فقل: أمريكا وإسرائيل، قضية هامة، عندما ترى سحْب أسلحة فقل: هذا وراءه أمريكا وإسرائيل، كلمات أحياناً تكون الكلمة لها أثر كبير جداً، أي: يحتاج الأمريكيون حتى يجعلوا لهم مبرراً أن يقوموا بأعمال كبيرة (تفجيرات) ويقتلوا أناساً منهم، أمَّا أنت فهي عبارة عن كلمة أمامك تُقدَّم لك قد تقولها مجاناً لستَ بحاجة إلى أن تفتعل أيَّ شيء حتى تُقدِّم كلمة، قل: أمريكا وإسرائيل، بهذه الأعمال يحقق الناس لأنفسهم أن يكونوا مؤمنين، وفعلاً

الله يقول في آية أخرى بالنسبة للمؤمنين الأوائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيكُمْ إِذْ هَمَّ قَومٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيكُمْ أَيدِيَهُمْ﴾ قوم آخرون كانوا أقوى منكم ﴿فَكَفَّ أَيدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾(المائدة:١١) لماذا؟ لأنكم مؤمنون ﴿فَكَفَّ أَيدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

هذه آية مهمة: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ﴾ بهذه العبارة المؤكدة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لاحِظ عبارة كافرين هنا هي تشمل كل فئات الكافرين: كافرين مشركين، كافرين منافقين، كافرين يهود، كافرين نصارى، كافرين بآيات الله، بأيِّ نمط وبأيِّ نوع كان، لن يجعل لهم سبيلاً على المؤمنين، لكن إذا كانوا فاهمين الإيمان ومستقيمين، وإلاّ قد تفتح عليهم السبل من كل مكان.

هذا مما يعطي طمأنة للمؤمنين ومما يزيح كل المقولات التي تصبح عند الكثير عبارة عن مبررات بأن يقعدوا (ترى أناساً متراجعين، وأناساً قالوا كذا، وأناساً مُثبِّطين، وأناساً، وأناساً؛ إذاً لن يصلح شيء)! فنقول في الأخير: مهما كانت الأمور ﴿لَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤١) إذاً تحركْ، ألم يُقدِّم المنافقين هنا فئة من الكافرين؟ لن يجعل لهم سبيلاً عليكم على الإطلاق، تحركوا وسيتحقق لكم ما وعد الله، والأمور بيد الله وكما يريد هو سبحانه وتعالى.

اتجَه أيضاً لإيضاح النقاط (نقاط الضعف) وهذا أسلوب قرآني هام جداً، ومن أهم الإيجابيات بالنسبة للعدو أنه يُبيِّن لك نقاط الضعف فيه حتى تعتبره في الأخير أنه فئة يواجَه بقوة كبيرة وراءه لضربه، الآن أليس الناس في هذه الدنيا عندما ترى دولة مُعيَّنة، أو ترى شعباً مُعيَّناً هو عدو لك، وترى دولة أخرى متجهة لضربه؟ ألستَ تَعتبر أنه في حالة ضعف وقد تتشجع لتعمل ضده لأنه في حالة ضعف؟ هنا يقول لنا بالنسبة للمنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(النساء:١٤٢) إذاً لا تكترث بموضوع المنافقين بأنهم قد يعيقون تماماً، تعاملْ معهم: تحركْ في مواجهة ما يقولونه وفق ما وجه إليه الله ولا يحصل عندك أيُّ احتمال بأن هذه الفئة قد تنجح، ويكون لها سبيل على المؤمنين أبداً، لماذا؟ لديهم نقطة ضعف كبيرة جداً: هم في مواجهة قوة تضربهم، هم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فمن يكون الله يخادعه، يمكر به – كما يقول – ويكيد له، أليس هنا يُعتبَر في موقف ضعيف؟ هذا أسلوب من أهم أساليب القرآن التي تعطي الناس أملاً، أنه يُبيِّن كل نقاط الضعف لدى الطرف المعادي.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:١٤٢) نفسية مذبذبة، نفسية غير مستقرة ﴿مُذَبْذَبِينَ بَينَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ﴾(النساء:١٤٣) فإن جاء للكافر نصيب فلا يكون محسوباً معهم في النصيب، وإن جاء للمؤمنين فتح فلا يكون محسوباً معهم في الفتح؛ فيحاول أن يتطفل هنا وهنا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ﴾(النساء:١٤١) عندما يأتي للمؤمنين فتح، ويقولون للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٤١).

إذاً هم فئة: ضالة، ضائعة، خاسرة ﴿مُذَبْذَبِينَ بَينَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤٣) لن تجد له سبيلاً ليهتدي إليه على الإطلاق، إذاً فالمنافقون هم فئة ضالة، فئة أضلها الله: أضاعها، لن تجد لها سبيلاً، ولن يكون لها سبيل تنفذ منه إلى المؤمنين فتعيقهم، وتضرهم إذا كانوا مؤمنين بمعنى الكلمة، لن تجد هذه الفئة أيَّ سبيل تهتدي به إلى أيِّ هدف من أهدافها على الإطلاق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٤٤) هنا بيَّن كيف تكون النتيجة عندما قال: هكذا شأن المنافقين هم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، هو بيَّن كيف تكون نتيجة تصرفاتهم ومواقفهم: خاسرون، ضالون ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ يهتدي به على الإطلاق. هذه هي تهدم أيضاً الأشياء التي يطمح إليها المنافق يحاول أن يعمل كذا من أجل أن يتحقق له كذا، وتكرر في القرآن في آيات أخرى مَررْنا بها أنه فعلاً كل ما لديهم من طموحات وآمال لن تتحقق أبداً، فيجب أن يحذر المؤمنون أن يتخذوا الكافرين أولياء تحت أيِّ غطاء كان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾(النساء:١٤٤) أليس هذا تهديداً رهيباً جداً؟ ستفتحون على أنفسكم المشاكل، هو هنا فَتحُ المشاكل، إذاً فيجب فعلاً أن نفهم بأن مِن أكثر ما يحصل للناس ويخذلهم مَن يقولون: (ستسبب لنفسك المشاكل، وتؤدي إلى كذا، وتفتح على نفسك المشاكل، قد يسجنونك، قد يحصل كذا، قد، قد...إلخ). ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا هو فَتحُ المشاكل الرهيبة، من جهتنا، ومن جهة الله الذي هو القوي العزيز،

القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، الذي لا يستطيع أحد على الإطلاق أن يحميك منه ولا أن يدفع عنك شيئاً يأتي من جهته على الإطلاق.

وأحياناً لأن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم يَضرِب كل ذكاء أمامه؛ ولذلك نقول: بأن الإنسان يجب أن يكون حذراً مِن أن يعتقد أنه ممكن أن يكون ذكياً أمام الله، أبداً، أحياناً قد تتخذ - مثلاً - طرفاً من الكافرين أولياء، ترى بأنه لم يعد هناك طرف يشكّل خطورة إلاّ هذا؛ إذاً سأتولاه وأرتاح، ولم يبقَ شيء، في الأخير يُحرِّك نفس ذلك الطرف عليك. وهذا أشد شيء على الإنسان أن يُحرِّك الجهة التي يحاول أن يتقرب لها ويتودد لها ويتخذها ولياً من دون الله، ويظن أنه إذا قد تولاهم وقد قامت علاقة طيبة معهم وقد صاروا أصدقاء، وأشياء من هذه، فلم يبقَ خطورة عليه؛ لأنها فقط هي الجهة التي تمثل خطورة أمامه، ولا تدري إلاّ وتلك الجهة قد (قَلَبَت وجهها) وتضربه هو، تكون حسرة وندامة ويتلفت يميناً وشمالاً وليس معه أيُّ طرف - على الإطلاق - يمكن أن يشكّل له دفاعاً؛ لأن هذا الشيء يأتي من جهة الله.

من هي الجهة التي يتوجَه إليها العرب الآن؟ أليست أمريكا؟ قضوا أعمارهم وكل واحد يحاول أن يتودد إلى أمريكا، ويتسابقون على ود أمريكا وصداقتها، ويعتقد أنه قد صادق القوة التي لم يعد فوقها قوة، هكذا يعتقد؛ لأنه قد أصبح صديقاً لأمريكا لم يعد عليه خطورة من أيِّ طرف آخر: لا من داخل شعبه ولا من خارجه، يعتقد بأنه قد أمِن! ثم يُفاجَؤون بأن أمريكا هي التي تتجه الآن لضربهم!

لاحِظ من أبرز الأشياء الآن، وهي تحاول في السعودية، الدولة الصديقة الحميمة فعلاً، صديق حميم لأمريكا، وكانوا يتنافسون هم واليمن، كان اليمن أيضاً يحاول ألاّ يبقى فقط صديق صديق، يريد أن يكون صديقاً مباشراً، جاءت فترة كانوا يتنافسون فيها، اليمن يريد أن يكون صديقاً مباشراً لواشنطن، لا يبقى فقط صديق صديق، أو عميل عميل، بل يكون مباشراً. الآن أمريكا متجهة إلى اليمن والسعودية ومصر والأردن وسوريا وكل الأصدقاء الحميمين؛ لأنهم اتخذوها ولياً من دون الله فعلاً.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤٣) حتى عملاؤهم، أحياناً تأتي لتعمل معهم، تعمل، تعمل، وتُخْلِص ولا تدري وجاءت موجة سياسية مُعيَّنة ويترجَّح بأن يقتلوك لمصلحة سياسية، هذه تحصل داخل المخابرات، أو يرون بأنهم لم يعودوا بحاجة إليك، هم يريدون واحداً منهم هم، وفي الأخير يحولونك إلى طاغوتي، ونظام مستبد، وطاغية، ويحاربونك، ويشوهونك حياً وميتاً، ولو كنت عميلاً لهم وتعمل معهم.

هذه الآية فيها تهديد رهيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تحت أيِّ غطاء كان، سواءً باسم مصلحة البلد، أو حفاظاً على مصلحة عامة، أو حفاظاً على مذهب، أو حفاظاً على ما أدري ماذا[1] أو من أجل أن نحصل على مساعدات، أو من أجل أن نأمن أطرافاً أخرى تشكّل خطورة، أو، أو...إلخ، نهائياً؛ لأن هذا بداية شر عليكم.

﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أي: كأنكم تبحثون أنتم ﴿أَن تَجْعَلُوا لِلّهِ عَلَيكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وجهاً واضحاً يضربكم، مع أنه هناك أن الله ليس هو الذي يتمحَّل للناس، ويبحث كيف يعمل ليضربهم، بل هو يعمل الكثير من أجل كيف يهتدون فينجون، لكن هم هم إذا لم يتجهوا ليهتدوا بهديه فكأنهم هم الذين يريدون أن يجعلوا لله عليهم سلطاناً مبيناً، سلطاناً: وجهاً واضحاً يضربهم، وسيضربهم بأصدقائهم الحميمين الذين اتخذوهم أولياء من دون الله.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(النساء:١٤٥) لأن هذه في الأخير تَظهَر حالة نفاق، لا يمكن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلاّ وهي تُعتبَر حالة نفاق. وقد ذكر كيف المنافقين في البداية، وهدد المنافقين ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ هذه فيها سخرية منهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النساء:١٣٨،١٣٩) هنا أيضاً يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾(النساء:١٤٥) نعوذ بالله، الدرك الأسفل من النار: أخطر موقع في النار. هذا معناه خسارة كبيرة في الدنيا والآخرة، وتلاحِظ كيف قدَّمهم خاسرين، لا يَعتبرُهم المؤمنون منهم، ولا يَعتبرُهم الكافرون منهم، يستغله الكافرون ثم يتخلون عنه، والمؤمنون لا يركنون عليه، وفي الآخرة أين؟ ﴿فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ نعوذ بالله.

معنى هذا بأن تولي الكافرين (اتخاذهم أولياء) سيكون في واقعه حالة نفاق؛ لأنه قال عن المنافقين: إنهم هكذا ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه قدَّم الكافرين (ما فيهم مَمْسَك)[2] لستَ بحاجة

---

(١) ما أدري: استخدمت هنا للتهكّم.

(٢) ما فيهم ممسك: ليس فيهم شيءٌ تتمسك به.

إليهم على الإطلاق ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾(النساء:١٣٩) المنَعة، يمتنعون بهم؟ هذا لا يحصل ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المنَعة بيده، سيحطم هذه المنَعة التي تحاول أنت أن تبحث عنها، وتشكّل درعاً أمامك، سيحطمها بالنسبة لك فلا تقيك شيئاً أبداً.

معنى هذا بأن الإنسان عندما يكون متجهاً هذا الاتجاه: يجعل اللهَ عدواً له وهو القوي العزيز وجبار السموات والأرض والقاهر فوق عباده وله جنود السموات والأرض، أليست هذه حالة خطيرة؟ أيهما أسهل: أن يكون عدوك الله، أو أن يكون عدوك أمريكا؟ أمريكا لا تمثل شيئاً على الإطلاق بالنسبة لقوة الله، هي في قبضته يمكن أن يحطمها، يسوقها إلى ما يحطمها.

معنى هذا بأنه لا يُوجَد شيء في الكافرين تتمسك به على الإطلاق، إنما جهْل الإنسان بالله وعدم ثقته بالله وعدم فهمه لكتابه، وهديه، في الأخير يعطيهم اعتباراً وينسى الله تماماً، ليس فيهم مَمْسَك أبداً، لا هم يشكّلون منعة، عزة ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولا هم يشكّلون هدى، الهدى بيد الله، ليس فيهم شيء. إنما الناس فقط سيفتحون على أنفسهم هذا الشر الرهيب: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾(النساء:١٤٤) سلطاناً واضحاً يَضرِب، وله جنود السموات والأرض، كل البشر هم جنوده، سيحرِّك عليك عدوه، يجند عدوه؛ لأن عدوه لا يخرج عن قبضته، سيجنده هو ضدك.

ولاحِظ لأن هذه حالة خطيرة جداً بالنسبة للمؤمنين من البداية يُقدِّم بأنكم أنتم الوحيدون الذين يمكن أن يقوم على أيديكم القسط، القسط الذي يمثل شهادة لله، إقامة دينه، فعندما يقعدون فهذا يُعتبَر ماذا؟ يُعتبَر حالة رهيبة جداً من التخلي عن المسؤولية التي تُعتبَر مسؤولية كبيرة منوطة بهم – هي بالشكل الذي يجعلهم يثقون بالله، ويعتمدون عليه، ويعتزون بعزته – فيميلون إلى أعدائه، يتخذونهم أولياء! فهنا يُضرَبون ضربة شديدة.

أحياناً يأتي التولي تحت عنوان: من أجل أن نسلَم شرهم (هم فعلاً ملاعين، لكن نريد أن نسلَم شرهم) قد صار يعمل معهم، ويجلب الشر على نفسه، إذا أرادوا أن يغيِّروا مناهج يقول: (سهل نغيِّر، ما دام ذلك سيقي البلد ضربة محتملة) قد أصبح يَضرِب هو، أصبح يعمل ليضربه الله، وهذه هي القضية الخطيرة. هم يريدون كذا، فيقول: (تمام) ينفذها، هم يريدون أن يكون الحادث المعيَّن – وإن كانوا هم الذين عملوه – هم يريدون أن يجعلوه تلفيقاً وذريعة لهم، وأن هناك إرهابيين انطلَقوا من داخل بلادنا، فيقول لهم: (تمام، هم إرهابيون) (نسلَم شرهم، نسلَم شرهم) وهكذا، وهو دخول في الشر، في الشر لن نسلَم شرهم نهائياً.

تتجلى هذه المسألة أمامهم، وهذا من الأشياء الغريبة، السعودية عملت أشياء كثيرة مما يسمى تحت قائمة (تفادي ألاّ يحصل) هل توقف الأمريكيون؟ أبداً يتخذون طريقتك شاهداً لهم على أن هناك إرهاباً، عندما يدخلون هم يأتون ليُلفقوا حادثاً داخل بلادك، يقولون: (حادث إرهابي، في اليمن إرهابيون) وتقول: (تمام، يوجَد إرهابيون) من أجل ماذا؟ من أجل أن تسلَم شرهم، فلا تُنكِر؛ لأنك إذا أنكرت تتصور ماذا سيعملون بك! أنت هنا تقدِّم شهادة لهم أيضاً، تعمل معهم مثلما يعملون هم وأكثر. عندما تقول: لا، لا يوجد شيء، هذا عملكم أنتم، عملْنا تحقيقاً، واتضحت النتيجة بأنكم أنتم الذين ارتكبتم هذا الحادث، لا يوجد أحد إرهابي من هذه النوعية نهائياً.

وبعض الناس يقولون: (هم حقيقة ملاعين، لكن نريد أن نسلَم شرهم، نريد أن نسلَم شرهم) وهكذا، ثم يعود على شعبه، على الناس، وينفّذ كل خططهم تحت قائمة (نسلَم شرهم) وهنا فتْح الشر، إلى درجة أنهم وصلوا إلى القرآن نفسه، وهذه قضية ليست سهلة، أي: مستعدون حتى بالنسبة للقرآن، هذه الآيات لا يريدونها، يقولون: (تمام، أبعدوها من المنهج)! آيات لا يريدون أن يقرأها أحد (تمام، لا تعد لقراءتها في المحراب وإلاّ أبعدناك، فلان لا يعد لقراءتها من على المنبر وإلاّ أبعدناه). وفي الأخير تجد الآيات التي لا يريدون أن يسمعها الناس هي الآيات التي تحرِّك الناس فيكونون قوة تحمي نفوسهم وتحمي بلادهم، أي: يتجهون إلى أن يكون الناس في الأخير أمة لا تتحرك ولا تعمل شيئاً، هم يريدون هكذا.

هو عندما يحاول أن يُنفّذ خططهم أليس يحاول أن يعمل ضد نفسه؟ ربما بالنسبة لنا في اليمن نُعتبَر أكثر الشعوب خسارة؛ لأن الأمثلة تظهر قبل أن تصل إلينا، من داخل العراق، ومن داخل السعودية، ومن داخل بلدان هناك، المفروض بأن كلما وجدنا الآخرين قدَّموه ولم ينفع، نتخذ قراراً بأن هذه جهة لا ينفع معها أيُّ وسيلة ننفذها مما تطلبها نهائياً (نعتقل مكبِّرين لنسلَم شر أولئك، والمنهج سهل أن يكون فيه تغييرات لنسلَم شرهم) ويكون في الأخير قد أصبح يعمل لهم.

لأنه إذا لم يعد هناك صوت ضدهم، ولا هناك توجيه يُحرِّك الناس، معنى هذا أن تُمهَّد البلد لاحتلالهم، تبعد أيَّ أصوات معادية لهم، يبقى صوتهم هم الذي ينزلونه؛ لأنهم ينزلون صوتاً يجعل الناسَ يقبلونهم ويعتبرونهم محرِّرين وفاعلي خير وطيبين، وتزيح الأصوات التي تفضحهم ليبقى صوتهم هم، معنى هذا يمهدون الناس ليحتلوا في الأخير. لا يوجد من يتحرك لأنك توقف كل من يحرك الناس، ولا هناك من يبيِّن للناس بأنك توقف كل من يقول للناس!

أليسوا يعملون ضد نفوسهم؟ أليست الحكومات الآن تعمل ضد نفسها؟ أمَّا عندما تكون بعض الحكومات في بلدان فيها تعددية سياسية والأحزاب الأخرى كلها منسقة مع أمريكا، وما زال يحاول أن يوقف أيَّ صوت في الشعب، ماذا بقي إذاً؟ ماذا بقي؟ هل بقي طرف آخر؟ هو يعتبِر نفسه لم يعد يمثل قوة تحمي ولا حتى لنفسه، ورأى أحزاباً أخرى - نفس الشيء - منسقين يريدون مكاسب سياسية ومصالح، لا يهمهم شيء آخر، هناك صوت في الشعب تلقائياً لا هو على حسابه ولا بتشجيعه ولا بتمويله ولا بإشارة منه ولا بأيِّ شيء وما زال يحاول أن يسكته، ماذا بقي إذاً؟ لم يبقَ إلاّ سلطة ضعيفة لا تحمي ولا حتى نفسها، وأحزاب تنسق مع العدو، وشعب يُقال له: (اسكتْ، اسكتْ) أليس هذا تمهيداً للاحتلال؟! هذا "دَبور"[1].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾(النساء:١٤٥،١٤٦) اعتصموا بالله مقابل أن يتولوا الكافرين، هم يريدون عزة يريدون منعة يريدون وقاية من الشر فليعتصموا بالله. ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ بدل ما أفسدوا بنفاقهم أو أفسدوا بتوليهم وإن كان تحت رؤى: دعاوى مصلحة ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه أن المؤمنين يجب أن يكونوا هكذا، عندما يقول: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيكون مع المؤمنين الذين يقولون: (ليس لهم دَخْل)! هؤلاء ليسوا مؤمنين. المؤمنون يكونون هكذا: تائبين، مصلحين، معتصمين بالله، مخلصين دينهم لله ﴿وَسَوفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:١٤٦) المنافقون في الدرك الأسفل من النار، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً في المقابل. هذا التحذير الهام جداً الذي يتناول أشياء في هذه الحياة الدنيا ويتناول أيضاً الحديث عن العقوبات في الآخرة (جهنم) نعوذ بالله.

الله يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾(النساء:١٤٧) أي: أن الله ليس هو الذي يبحث كيف يُوقِع المصايب عليكم مثلما يقول هناك: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾(النساء:١٤٤) وعندما يقول في الأخير: ﴿فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(النساء:١٤٥) ليس معناه أن الله يبحث لمبرر كيف يعذبكم وكيف يسلط عليكم، لكن أنتم الذين تفتحون على أنفسكم بما يبدو وكأنه إرادة من جانبكم، وكأنكم تريدون أن يوقع الله بكم ما يُحذِّركم منه، هنا أيضاً يأتي يُحذر الناسَ ويُبيِّن لهم ماذا سيحصل عندما يبتعدون عنه وعن دينه، مع أنه رحيم وليس عدواً، وهو غني عنكم ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(النساء:١٤٧).

إذاً فمِن عندكم أنتم ما يقيكم عذابَه، أمَّا مِن عنده فهو لا يتمحَّل كما تعمل أمريكا، أليست أمريكا تبحث كيف تصل إلى احتلال الناس وتعذيبهم وإهانتهم؟ هم يحاولون أن يختلقوا أشياء ويلصقوها بأيِّ شعب، لا، ليست طريقة الله هكذا، بل يُبيِّن للناس كيف هي الطريقة التي إذا ساروا عليها يكونون مفلحين وناجين وأعزاء وأقوياء...إلخ، تكون النتيجة جيدة بالنسبة لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويُبيِّن لهم أيضاً عندما يخالفون كيف ستكون العقوبة، عندما يقول: إنها تأتي مِن عندهم هم، أي: مِن عندكم أنتم، أنتم، أمَّا الله فهو لا يبحث عن مبررات كيف يعذبكم هذا العذاب في الدنيا أو العذاب في الآخرة، أنتم الذين تعملون ما يجعله يقضي بعذابكم، كلمة ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾ تشمل هنا ما يأتي في الدنيا وما يأتي في الآخرة، التهديد السابق كله حول أشياء في الدنيا وفي الآخرة.

﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُوا خَيرًا أَو تُخْفُوهُ أَو تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(النساء:١٤٨،١٤٩) يأتي في كثير من المقامات عندما يبدو الموضوع فيه توعية ساخنة التزام في النفسية (نفسي) أن هناك قِيَماً يجب أن تكون ملتزماً بها؛ ولهذا يذكر إقامة القسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(النساء:١٣٥) ويذكر كيف يجب أن يكونوا إضافة إلى آيات أخرى، ويذكر أيضاً فئات هي تعمل، لكن يجب أن يفهم الناس بأن الإسلام وهو يبني الناس أن يكونوا أقوياء وأشداء وأولي بأس شديد كما قال في آيات أخرى أن هناك قِيَماً يجب أن يكونوا ملتزمين بها، والالتزام بها لا يمثل عائقاً أمامهم سواءً كان فيما يتعلق بأقوالهم أو أعمالهم.

---

(١) الدَّبُور: من اللهجة العامية، وتعني: سُوء الحظ.

﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ فليكن قولك قولاً سديداً مع كل الأطراف، القول الذي يدعوهم إلى الله هدى ليهتدوا، تُبيِّن لهم خطأ ما هم عليه، ولك في حالة إذا كنتَ مظلوماً أن تجهر بكلام هو مما يسوء الطرف الظالم، لكن يجب أن يكون كلاماً حقيقياً، لا يَكُنْ فيه بهتان، لا يكن فيه زور، لا يَكُنْ فيه كذب، بل كلاماً حقيقياً، كلاماً مثلما قال في الآية السابقة بالنسبة للمنافقين: ﴿وَقُل لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣) قولاً مؤثراً، قولاً يُلهِب داخله، هذا يأتي حتى بعبارات ولو لم تكن بعبارات مما يسمى (سَبًّا) – مثلاً – يكون بعبارات طبيعية ﴿قَولاً بَلِيغًا﴾.

﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾(النساء:١٤٨) مَن ظُلِم فلا مانع، لكن يأتي بعده: ﴿إِن تُبْدُوا خَيرًا أَو تُخْفُوهُ أَو تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(النساء:١٤٩) لكن متى يمكن أن يعفو الإنسان؟ في حالة الاقتدار، لكن عندما تكون أنت أمام جهة تظلمك وتظلم الأمة جميعاً وتهاجم دينك وتهاجم نبيك وتهاجم كتابك وتتجرأ حتى على الله سبحانه وتعالى، وأنت في الطرف الآخر لستَ في جهة قوة باعتبار إمكانيات هذه الحياة، حتى ماذا؟ حتى يكونوا تحت رحمتك فتعفو عنه أو تقابله بكلام سيئ، فهنا لك أن تجهر بالكلام الذي يسوؤه ويكون في إطار عملي، لا يكون فقط مسألة (تشفِّي) بل في إطار عملي. عندما يقول هناك: ﴿وَقُل لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾ ليست قضية (تشفِّي) لأن الإنسان المؤمن عليه أن ينطلق وكل شيء يسيطر على مشاعره هو العمل لله وفي سبيله، بمقدار ما يكون كلامه بليغاً له أثر في نفسية هذا العدو وله أثر إيجابي في ماذا؟ في المجال العملي، فلك أن تقوله.

من الكلام الذي يسوء اليهود والنصارى ويخافون منه كلمة: الموت، (الموت لأمريكا) لا يريد أن يسمع كلمة موت نهائياً، نهائياً (الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل) ولهذا قال الله هناك في الآية: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيظِكُمْ﴾(آل عمران:١١٩) قل موتوا بغيظكم، وذكّرهم هو سبحانه وتعالى بالموت في آيات سابقة قرأناها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّونَ أُجُورَكُمْ يَومَ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران:١٨٥) جاءت بعد الكلام عن بني إسرائيل، مع أنها لا تُعتبَر كلمة سيئة، لكن هي بالنسبة لهم تسوؤهم أن يسمعوها.

وعندما تنطلق يجب أن تنطلق في إطار عملي، ليست مجرد كلمة (تشفِّي) هكذا، بل كلمة لها تأثيرها، كلمة تنطلق من جهة هي تعمل لتقف في وجوههم على أساس كتاب الله، وبإذن الله، فهذا العمل في نفس الوقت له إيجابية كبيرة جداً شعار: [**الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام**] كلمات هامة ولها أثر في نفس الوقت، أثر كبير أمام أشياء كثيرة في نفسياتهم من المؤامرات والخطط والخبث وتسد أمامهم منافذ كثيرة من التي يحاولون أن يستغلوها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَينَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَينَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾(النساء:١٥٠، ١٥١) هذا بعدما يقول للناس أن يكونوا قوامين بالقسط كلمة واسعة وعمل كبير وواسع جداً، ليس معناه أن يقولوا: ماذا نعمل؟ هنا يقولون: سمعنا وأطعنا، لكن ماذا نعمل؟ يشرح لك ميادين عملك، يشرح لك كل الفئات التي يجب أن تقاومها؛ لأن مقاومتك لها إزالة فساد، مقاومتك لها في إطار إقامة قسط، وإقامة قسط في نفس الوقت.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(النساء:١٣٥) ماذا نعمل؟ يقول لك هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ...﴾(النساء:١٥٠) أليست راجعة إلى بني إسرائيل يتحدث عنهم؟ ودائماً يذكر العدو بما يشخصه فتراه سيئاً جداً، وبما يثبت فيه نقاط الضعف، هذه تحصل في آيات سابقة، يتحدث هنا عن هؤلاء يقول في الأخير: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾(النساء:١٥١) لتراهم على واقعهم سيئين جداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَينَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ في مَن هذه بارزة؟ في بني إسرائيل في أهل الكتاب: اليهود والنصارى ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَينَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ منهجاً آخرَ وفق أهواء وفق مصالح مُعيَّنة ووفق ما يشفي غليلهم وعداوتهم للبشر وعداوتهم بالذات للمسلمين للمؤمنين ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾(النساء:١٥١) إذاً ففي مجال ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾(النساء:١٤٨) هنا يفتح لك المجال أمام أعداء من هذا النوع أن تقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً عندما تكون المصلحة العملية في إطار إقامة قسط وتطبيق توجيهات الله: أن تقول. أليس هنا جاء بكلام يُعتبَر فعلاً سيئاً بالنسبة لهم، يكشف سوءهم؟ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

بعضهم يقول: أليس الله يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٨) فلا أحد يسبهم؟ لا، هذا توجيه؛ لأنه قد يكون مثلاً بعض الناس ينطلق هو بعبارات ليست جيدة، ليس لها قيمة عملية، بل قد تكون مثيرة - مثلاً - بالنسبة لأطراف مُعيَّنة، يقول لهم: اسكتوا أنتم هو سيتولى الموضوع، أليس الله ذكر في القرآن الكريم الكلام الكثير الذي فيه سب للمشركين، وسب للآلهة؟ لأن هذا هو المنطق الحكيم الذي يكشف واقعهم وليس مثلما يعمل البعض عندما يخرجون في المظاهرات يسب (شارون) يسب (بوش) أليس بعضهم يعملون هكذا؟ هذا لا ينفع.

في الإطار العملي يجب أن يكون كلاماً بليغاً، كلاماً حكيماً، وكلاماً مؤثراً، يسكت أطراف لا يعرفون كيف يتكلمون، هذا الكلام الذي يقوله الناس والذي هو كشعار يُرفَع، لو رفع بدلاً عنه عبارات سب لَمَا كانت مزعجة لليهود لَمَا كانت مزعجة لأمريكا وإسرائيل، يأتي أشخاص يسبون (بوش) ويسبون (شارون) هكذا صراحة، هل اعتقلوهم في المظاهرات؟ كانوا في المظاهرات يتابعون الذين يرفعون شعارات ويخطون في ملابسهم بخطوط حتى يعتقلوهم فيما بعد، كان بعض المخابرات يخططونهم ليعتقلوهم فيما بعد، لا يتابعون مَن يسب (بوش) بنفسه، بعضهم يسب (بوش) بنفسه فلا يعتبرونها قضية، يعرفون أن هذا الكلام أهوج ليس له قيمة عملية، وهم سياسيون كل شيء عندهم يُصنف باعتبار أثره على مؤامراتهم وعلى خططهم وعلى سياستهم، ليس عندهم عيب ولا "شوعة"[1] ولا شيء نهائياً.

لاحِظ هنا بعد قول الله سبحانه: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَولِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ كثير من الناس ينبغي أن يسكتوا، يأتي بكلام سيئ وليس له قيمة عملية؛ لأنه هناك في قول الله تعالى: ﴿وَقُل لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣) من الذي يعرف أن ينتقي قولاً بليغاً؟ القول البليغ من أمثلته: ﴿مُوتُوا بِغَيظِكُمْ﴾(آل عمران:١١٩) هذا من أمثلته، لماذا؟ لأن هذا معناه هم هؤلاء عارفون نوايانا من داخل، لم ينفع خداعنا لهم: (آمَنَّا) ﴿وَإِذَا خَلَوا عَضُّوا عَلَيكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيظِ﴾(آل عمران:١١٩) هذا من القول البليغ الذي يجعل الطرف الذي يقوله يُبيِّن لك أنه يعرف واقعك، يوجد عندك هزيمة نفسية، يوجد عندك إحباطاً في حركتك أنت، لاحِظ عندما قال الله: ﴿وَقُل لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾ كيف كان القول البليغ بالنسبة لهؤلاء: ﴿مُوتُوا بِغَيظِكُمْ﴾ ما أدراه أن هناك غيظاً؟ فأن يعرف أنك عارف أن داخله غيظ شديد فتقول: ﴿مُوتُوا بِغَيظِكُمْ﴾ أي: أنك فضحته أمام نفسه وبيَّنت له بأنك تعرف واقعه، وتعرف حقيقته، وأنه لا ينفعه خداعه معك، وتضليله لا يؤثر عليك، أليس هذا من القول البليغ فعلاً بالنسبة لليهود؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَينَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَينَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾(النساء:١٥٠،١٥١) مهما أظهروا أنفسهم، وأنت ارجع إلى الكافرين في القرآن لتعرف كيف تكون أعمالهم، وكيف تفكيرهم، وكيف رؤيتهم، وكيف خططهم، وكيف مصيرهم، وكيف خسارتهم في الدنيا، وكيف خسارتهم في الآخرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾(النساء:١٥١) في الدنيا وفي الآخرة، أي: الله يحسسهم في أنفسهم أن يعلموا بأنه يعلم بواقعهم، وأنه معد لهم عذاباً مهيناً، وعذاب مهين عندما تأتي كلمة (عذاب) في كثير من الآيات المطلقة فلا تقصرها فقط على عذاب الآخرة، قد تكون شاملة - فعلاً - لعذاب في الدنيا وعذاب الآخرة، هو قال في آية أخرى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾(الأعراف:١٦٧) أليس ذلك هنا في الدنيا؟

لأنهم هم مَن تَصْدُق عليهم هذه فيما يتعلق بالتفريق بين الله ورسله، والتفريق بين رسله، يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويُقدِّمون هم مِن عندهم شيئاً على هواهم وعلى ما يحقق أهدافهم ومصالح مُعيَّنة، هذا يعني أنهم خاسرون، أليس هذا يعني أنهم خاسرون؟ أن تأخذ من هذه الآية أن تعرف هكذا يكون أعداؤك هم أعداء لله وهكذا واقعهم، هم في حالة ضعف، وفيهم نقاط ضعف خطيرة، أنهم في نفس الوقت هم أعداء لله، والله لا يمزح مع أعدائه، هو يخادعهم، يمكر بهم، يكيد لهم ليضربهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ على طريقة يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كما يفعل بنو إسرائيل ﴿أُولَئِكَ سَوفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:١٥٢) هذا يرفع معنويات المؤمنين من خلال تقديم واقعهم وواقع أعدائهم، فيعرفون أنهم في مقام عظيم وأنهم موعودون بفضل عظيم من الله.

---

(١) شُوعَة: من اللهجة العامية، وتعني: الحياء.

فعندما ينظر أحد إلى هاتين الفئتين، ما هي الفئة التي يُعتبَر جانبها قوياً؟ ألم يُقدِّم أمامنا هنا فئتين؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾(النساء:١٥٠، ١٥١) هذا طرف.

الثاني: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:١٥٢) مَن الطرف الذي يُعتبَر في واقعه أقوى؟ أليس طرف المؤمنين؟ فلماذا يأتي المؤمنون يعتبرون أنفسهم أنهم ضعاف، وهو هنا يُقدِّم من خلال المقارنة أن يعرفوا موقعهم أنه موقع قوة؟! ولذلك قال في آية أخرى: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾(محمد:٣٥).

وهذه هي التي يجب أن تحكم ثقافة الناس في الحديث عن المؤمنين؛ لأن البعض يتجه إلى أن يُقدِّم صورة عن المؤمنين أنهم "مستضعفون، ومساكين، ويرحموا الله[1] ولا بُد أن يتحمل الإنسانُ ويصبر، وما هي إلّا دنيا" وإذا بك ترى بأن المؤمنين يجب أن يكونوا هكذا! يُقدِّم من خلالهم مقارنة ليعرف المؤمنون موقعهم أنهم الأعلون بكل المقاييس، ويقول هنا: ﴿أُولَئِكَ سَوفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يذكر في آيات أخرى أجراً في الدنيا إضافة إلى الأجر في الآخرة، إضافة إلى ما وعدهم به من تأييد لا يزال هناك أجر، أليس الناس الآن بحاجة إلى التأييد فقط؟ سيحصل تأييد وأمن وأجر في نفس الوقت في الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾(النساء:١٥٣) هذا في إطار تشخيص نفسياتهم ورُؤَاهُمْ وكيف هم، وهذه لها قيمة كبيرة جداً في مجال معرفة مواجهتهم والتعامل معهم، في إطار المواجهة تكون عندك صورة واضحة عنهم، فترى هذه الصورة بالشكل الذي يقطع عندك أيَّ أمل أو طمع فيهم يجعلك تثق بهم نهائياً، أو أنهم سيكتفون منك بشيء مُعيَّن؟ هم يبحثون عن المستحيلات يتمحلونها، انظر كيف تعامُلهم في فلسطين؟ تعامُل يعلقون القضايا على ما يُعتبَر أشبه شيء بالمستحيل.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهذا الكتاب واضح وقد عرفوه كما يعرفون أبناءهم وعرفوا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هكذا وعرفوا بأن هذا مُنزل مِن عند الله، هم يعرفون الكتب السماوية كيف تكون عادة والمواضيع التي تتناولها ومنطقها، ومع هذا يريدون أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، أليس هذا من المطالب التي تعني ماذا؟ أنك كلما حاولتَ أن ترضيهم في موقف فلن يرضوا عنك، بل سيبحثون عن مطلب آخر، سياستهم الآن قائمة على هذا، عندما تقول: لا بأس نرضيهم في هذه من أجل عسى أن... لا تدري إلاّ وقدَّم لك مطلباً ثانياً ومطلباً ثالثاً، لو لم يرَ إلاّ مطلباً مستحيلاً سيقدِّمه.

﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾(النساء:١٥٣) يرونه وهو يَنْزِل ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ هذا مواساة للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يُبيِّن أن طبيعتهم هكذا، وتمحُّلاتهم بعدما يكونون قد تبيَّن لهم الهدى وآيات واضحة جلية أمامهم ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ إذا طلبوا منك كتاباً من السماء هم هكذا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(النساء:١٥٣) هل تقول بأنهم يريدون كتاباً من السماء من أجل بينات من أجل أن يهتدوا؟ جاءت لهم آية بينة: أخذتهم الصاعقة وأحياهم، وتراهم هناك يتخذون العجل من بعدما جاءتهم البينات، لو نزّل كتاباً من السماء لاستمروا على تلك الطبيعة.

هذه لها قيمة في معرفتهم، أي: العرب كانوا بحاجة ماسَّة إلى معرفتهم من خلال القرآن فعلاً يعرف أنهم أناس عندهم طلبات متعددة، ولا يقف ولا يسكت، بعض الناس يقولون: نسكت، يتصورون أننا لو سكتنا من هذا الشعار لَمَا حصلت أيُّ إشكالية، نسكت وهم هؤلاء يُقدِّمون طلبات أثناء رَفْعِنا للشعار، أليسوا يريدون أن يُغيِّروا المناهج ولهم موقف من القرآن بألاّ تُقرأ آيات منه؟ يتحكمون في مناهج التربية، ونحن نرفع الشعار، هل تتصور بأنك عندما تسكت سيسكتون؟ سيُقدِّم طلبات أخرى. قالوا إن السعوديين قدَّموا لهم تنازلاً عن أكثر من ألف خطيب أبعدوهم، فلم يسكتوا عنهم، بل قدَّموا طلبات. اعرفْ أن طبيعتهم هكذا: طلبات، طلبات، وإن لم يجد إلاّ المستحيل فإنه يطلبه وفي الأخير يقف منك موقفاً أنك لماذا لا تُقدِّم له المستحيل.

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَونَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أيضاً في ذلك الزمن ولم يهتدوا ﴿وَآتَينَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾(النساء:١٥٣) سلطاناً واضحاً بينات واضحة ولم تنفع معهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:١٥٤) أي: كأن تقول: لم ينفع. إذاً معناه بالنسبة للمسلمين ليس أن الله يشكو، الله يقول

(١) يُرْحِمُوا الله: من اللهجة العامية: وتُقَالُ عَن الَّذِي وَصَلَ – فِي مَسْكَنَتِهِ وَعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ – إِلَى حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا.

هناك هو غني عن عباده وهو يعاقب الكل، ما قيمة هذا؟ هل الله يشكو أمامنا منهم؟ لا. هو القدير، هو الغني، هو القاهر، لكن يبيِّن لنا بأن واقعهم هكذا، قد رفع جبلاً فوقهم (جبل الطور) ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣) سجدوا ذلك الوقت وأعاد الجبل، وعادوا لمسلكهم ذلك، بمعنى: أن على الناس أن يعرفوا كيف هذه الفئة، أنت في حالة الصراع معهم لا تُخدَع بمفاوضات فيتوهوك في المفاوضات.

لاحِظ الآن كيف يعملون مع حزب الله، طمَّعوا (حزب الله) ودفعوه إلى أن يتكلم بأنه سيطلق أسرى لبنانيين وفلسطينيين وأردنيين وعرب آخرين، ولم يحصل رد فعل، وفي الأخير لاحِظ كم لهم! شهور وهم في أخذ ورد، (فلان نحن لسنا مستعدين أن نطلقه) عندما سمعوا (نصر الله) يقول: سمير القنطار أول القائمة، قالوا: سنطلق اللبنانيين إلاّ (سمير)! هم فعلاً لم يخدعوا العرب ويلعبوا بالعرب إلاّ لأن العرب لم يحاولوا أن يفهموا عنهم صورة كاملة، لا يمكن أن تحصل على صورة كاملة عنهم تُبيِّن لك ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وأعماق نفسياتهم إلاّ من خلال القرآن؛ لأنه يذكر مواقف ثابتة أمامهم، أي: اعتبرها قضية مستحيلة: أن تعتقد بأنك عندما تتوقف عن شيء أو تستجيب لمطلب مُعيَّن منهم فسيسكتون، بل يقدِّمون طلبات، طلبات باستمرار، باستمرار يبحثون عن المستحيل، عندما تقول: مستعد، مستعد، مستعد، هنا يقدمون طلبات داخل الدول العربية وهم يقولون: مستعدون، مستعدون، مستعدون، ولم ينفع نهائياً.

لاحِظ كيف السرد في هذه الآية سرد لقضايا كثيرة كأنها في الأخير لم تنفع فيهم؛ لتعرفوا كيف هم ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:١٥٣، ١٥٤) فلم ينفع معهم إلاّ ماذا؟ لَعْن ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ وَقَولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قالوا: نحن لا نفهم ماذا تقول، هم قالوا لمحمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(النساء:١٥٥-١٥٧) إلى أن قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(النساء:١٦٠) هكذا يُبيِّن ما حصل عليهم من عقوبات. سرد أشياء كثيرة تخلل أثناءها كلام عن المسيح.

جاء إلى الآن في هذه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء:١٦١) وفي آية سابقة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾(المائدة:١٣) إذاً ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ﴾ وأحياناً يكون أسلوب القرآن يوكلك على ما قد عرفت عمَّا أعطاك من صورة، عمَّا حصل عليهم فيما يتعلق بأنفسهم وواقع حياتهم وعقوبات كثيرة أتت لهم في الدنيا وعقوبات وُعِدوا بها في الآخرة؛ لأنهم هكذا: ينقضون ميثاقهم، ويكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ويقولون في مواجهة البينات التي تدخل إلى أعماق القلوب يقولون: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم هكذا جريئون، نحن قتلنا عيسى بن مريم (رسول الله) أي: وقد تبيَّن لهم أنه رسول الله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(النساء:١٥٦، ١٥٧) فقط يظنون ظناً ليس لديهم يقين بأنهم قتلوه، ومع هذا يقدِّم النصارى القضيةَ وكأنها ماذا؟ وكأنها قضية يقينية مسلَّمة من المسلَّمات (موضوع الصليب) أليسوا يتعلقون الصليب ويعتبرون أن عيسى عليه السلام قُتِل؟ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٥٨) لأنهم فعلاً لم يقتلوه، وكلمة ﴿رَفَعَهُ﴾ ليس معناها: أنه بـ"الونش"[1] هكذا بجسمه إلى السماء! بل مثلما يقولون عندما يموت الإنسان: لحق بالرفيق الأعلى؛ لأنه في آية أخرى قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(آل عمران:٥٥) متوفيك ورافعك ﴿بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٥٨).

﴿وَإِن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوتِهِ وَيَومَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيهِمْ شَهِيدًا﴾(النساء:١٥٩) هذه الآية من الآيات التي يحصل اختلاف كبير حول تفسيرها ﴿وَإِن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يقدِّمون معناها: أنه ليس من أهل الكتاب أحد إلاّ وسيؤمن به قبل موته، وظهرت إشكالية في: ﴿قَبْلَ مَوتِهِ﴾ هل معناها: قبل موت المسيح أو قبل موت أحد من أهل الكتاب؟ في الأخير قالوا: إن معناها: ربما كل واحد من أهل الكتاب (الكافرين بعيسى)

(١) الوَنْش: من اللهجة العامية، ويعني: الرَّافِعَة.

أنه سيراه قبل موته: يتشخص له قبل موته ويؤمن به ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

ويبدو أن هذا التفسير – فعلاً – أشياء تقديرية، وتمحُّل، الحسين بن القاسم يفسرها بأن هذه العبارة ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ قد تكون هي عبارة مستقبَل وتعني الماضي، وأن هذا أسلوب عربي، بمعنى: أن من كان من أهل الكتاب مع وجود المسيح أن من كانوا مؤمنين به قبل موته سيكون شهيداً عليهم: على من كان يعرفهم ومن كان معاصراً لهم.

في آية أخرى في آخر (سورة المائدة) ما يقرر هذا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أليس هذا حصل من بعد؟ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة:١١٦، ١١٧) ألم يتكلم هنا عن فترة بقائه في أولئك الناس الذين كان معاصراً لهم؟ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة:١١٧) معنى هذا بأن شهادة عيسى عليه السلام فعلاً ستكون على أولئك الذين كان معاصراً لهم، آمنوا به وشهد أنهم آمنوا به لا يعلم بما حصل من بعد، ولم أقل لهم أنا هذا الشيء الذي ظهر من بعد؛ بل أول عبارة قالها: أنه عَبْدُ الله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾(مريم:٣٠) أول ما نطق بها بعدما أتت به أمه إلى قومه.

البعض يجعل معنى هذه الآية: أن المسيح سينزل في آخر الزمان! ومعناه أن ما مِن أحد من أهل الكتاب إلاّ وسيؤمن به في آخر الزمان عندما ينزل وسيؤمنون جميعاً! هذا التفسير ينقض القرآن نفسه؛ لأن القرآن يُبيِّن بأنه سيبقى يهود ونصارى إلى يوم القيامة، سيبقون ولو بقايا بعد حروب تحصل، أو بعض أناس يُسلِمون منهم، مثلما قال هنا في نفس الآية: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران:٥٥) هذه العقيدة انتشرت وبالذات في أوساط (السُّنية) و(الاثنا عشرية): أن المسيح سيعود في آخر الزمان وسينزل من السماء ويتجه ويؤمن به النصارى ويجعل النصارى كلهم يُسلِمون.

لكن هذه لا يوجد لها ما يطمئن الإنسان على أن يقول بها فعلاً ويعتبرها صحيحة؛ لأنه بالنسبة للنصارى هل هم يعرفون شخص عيسى عندما يأتي؟ وبالنسبة لليهود هل يمكن أنهم سيفرحون عندما يرونه وسيؤمنون به وهم كفروا به في زمنه؟ بعدما أراهم بينات رهيبة جداً واضحة جداً: وهو يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدَّخرونه، في زمنه ولم تنفع فيهم. هل هو شخص يعرفونه عندما يأتي أو سيكون نبياً من جديد؟ الله يقول في محمد: ﴿وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(الأحزاب:٤٠) لا يوجد نبي من بعده على الإطلاق.

المسيحيون منتظرون أنه سيرجع، وهي قضية لفّقوها هم من بعد. واليهود أيضاً منتظرون مخلِّصاً يَظهَر، وفي الأخير لا تدري إلاّ وقد اشتركت العقيدة، اشتركوا فيها هم وكثير من المسلمين: مسألة (نزول المسيح) اليهود هم على رؤيتهم فيه، والنصارى يعرِّفونه باسم أن ذلك المسيح سيعود، والاثنا عشرية والسُّنية كذلك يعتقدون أنه سيعود هو والمهدي ويفتحون القدس ويتجهون إلى بلدان أوروبا ويجعلونهم يُسلِمون، كيف يُسلِمون عندما ينزل عيسى؟! إن كانت نبوة جديدة فهذا غير ممكن، كنبوة جديدة، يحتاج إلى معجزات ويحتاج، ويحتاج. وإن كانت مسألة دعوة فالواضح أنه يكفي القرآن الكريم؛ لأن الله قد جعله بالشكل الذي تتجلى مصاديقه في هذه الحياة، أي: هو عصر رسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ألم يقل في القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣)؟ فكل الشواهد التي تأتي من خلال اكتشافات علمية ومن خلال حركة هذه الحياة، هي كلها بالشكل الذي تشهد لهذا الكتاب، هل يوجد هناك ما يشهد لِمَا في الأناجيل؟ أول شيء الإنجيل ضائع، الأناجيل الموجودة يأتي الواقع يكذب كثيراً مما فيها، هو عصر الشهادة للقرآن الشهادة لرسالة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

ليس معناه بأنه لا يوجد دلائل على الإطلاق من واقع الحياة تجعل الإسلام (هذه الرسالة التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)) هو الظاهر في هذه الحياة من خلال الآيات الكثيرة إلاّ أن يأتي بعيسى بن مريم ينزل من جديد وكأنها نبوة من جديد، هذه القضية بعيدة، أي: خلاصتها الأشياء كلها بإرادة الله، لكن لا يوجد بين أيدينا ما يمكن أن نعتبرها عقيدة صحيحة فعلاً، هذه الخلاصة، كل ما يقال حولها ليس بالشكل الذي يطمئن الإنسان بأنها عقيدة صحيحة أنه سينزل، نهائياً.

منها هذه الآية التي في (سورة المائدة): ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(المائدة:١١٦) أليس هذا الكلام من بعد فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾(المائدة:١١٧) هناك قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(آل عمران:٥٥) أليس هنا يُبيِّن بأن هناك مسيرة من بعده، من بعد توفيه له؟ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أن هناك مسيرة طويلة في الحياة من بعده، هو لا يحكي بأنه أيضاً قد بعثه من جديد؛ لأن هذا الكلامَ اللهُ يقول: إن عيسى عليه السلام سيقوله يوم القيامة.

تجد كل الاكتشافات الآن ليس فيها شهادة لشيء موجود لديهم من عند عيسى، اكتشافات، أي: انظر الأناجيل هل الاكتشافات العلمية هل حركة هذه الحياة تمثل شهادة لِمَا في الأناجيل الموجودة؟ لا، تجد فيها أشياء أثبت الواقع بأنها غير صحيحة ومكذوبة، كل ما يأتي من شواهد كلها شواهد للقرآن، حتى في حركة هذه الأمم، تجد الصراع أيضاً يشهد لهذا القرآن.

والذين يدَّعون بأنه سيعود يجعلون هذه الآية بأنها تعني: أنه سيعود وسيؤمنون به، لكن لاحِظ العبارة هنا: ﴿وَإِن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ معناها: ما من أحد من أهل الكتاب، أليس معناها هكذا؟ إذاً هذا بعيد جداً مع الآيات الأخرى بل قد نقول فعلاً بالنسبة لعبارة ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾(النساء:١٥٩) الفهم الإجمالي لهذه الآية بشهادة الآيات الأخرى أن من كانوا من أهل الكتاب كانوا مؤمنين به في حياته ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة:١١٧) ﴿وَيَومَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيهِمْ شَهِيدًا﴾(النساء:١٥٩) على أولئك الذين آمنوا به كمؤمنين.

وسيشهد بالنسبة للآخرين بأنهم ماذا؟ جاؤوا بشيء ولم يأتِ به عندما يقول: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(المائدة:١١٦) فهو أدلى بشهادة الآن - يحكي الله أنه سيقول يوم القيامة - شهادة بأن ما قدَّموه بعد من عقيدة باطلة (جعلوه هو وأمه إلهين من دون الله) أنها قضية لم يقلها، وإنني ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة:١١٧) أليست هذه شهادة على المؤمنين في عصره؟ مَن كانوا مؤمنين، ويشهد بكذب مَن بعده ممن افتروا على الله وجعلوه هو وأمه إلهين؛ لأنه لم يقل هذا، ولم يُعلِّمهم هذا، أنت ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾(المائدة:١١٦) ألم يقل له هكذا؟ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(المائدة:١١٧) فهو يشهد بكذبهم مِن بعده.

هل هناك حاجة إلى أن يَظهَر أيضاً من جديد حتى يكون شاهداً عليهم؟ قد شهد بأن ما افتروه، أنما ادعوه (أنه إله من دون الله) أنه لا أصل له، إذاً فيكون هذا نفسه مما في هذه الآية مما قد يكون أسلوباً من أساليب اللغة؛ لهذا نقول: القرآن الكريم يمثل مرجعاً مهماً في توثيق أساليب اللغة العربية، وعادةً استعمالات الناس فيما يتعلق بأساليب اللغة بعضها لا يصل إليها الناس في استعمالهم اليومي، قد يصل - مثلاً - الأدباء والشعراء إلى استخدام الأساليب أكثر مما يستخدم عامة الناس، لاحِظ حتى في المفردات نفسها، كم نسبة المفردات التي نستخدمها من اللغة؟ نسبة محدودة، الأديب الشاعر يستخدم مفردات أكثر، كذلك أساليب من أساليب اللغة فيما يتعلق بالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والغيبة والخطاب، وأشياء من هذه، والتنقل بين هذه أسلوب معروف قد يكون بعض الأساليب - مثلاً - غير ظاهر لكن قد يكون من الأساليب المستخدمة عند العرب وخاصة الأدباء والشعراء، فكيف بهذا الكتاب الذي هو للعالمين.

اللغة تقدَّم على سعتها، وأكثر ما يضمن التوثيق لسعة اللغة توثيق أساليب اللغة نفسها، نحن قلنا أيضاً في الحروف المقطّعة (ا، ل، م...إلخ) إنها أيضاً يستفاد منها توثيق هجاء الحرف العربي؛ لأن الله قد أراد أن تكون هذه اللغة هي اللغة العالمية؛ لأن الله جعل رسالة هذا القرآن عالمية، واصطفى للعالَم لغة عالمية، هي أقوم لغة، أن يصطفيها الله سبحانه وتعالى ليس معناه أنه اختيار قومي أبداً، القرآن كما قال الله عنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩) ومما هدى إليه أن تكون اللغة العالمية هي اللغة العربية.

أليس الآخرون - بعدما اتسع العالَم وبعدما اتسعت عوامل التواصل فيما بينهم احتاجوا إلى لغة عالمية - قدَّموا اللغة الإنجليزية كلغة عالمية؟ أي: أن العالَم هو بحاجة إلى لغة عالمية واحدة، فهذا اختيار من الله: أن تكون هي اللغة العربية. معناه إذاً: بالنسبة للقرآن الذي فيه هدى من الطبيعي أن يكون متضمناً ما يُعتبَر توثيقاً لأساليب هذه اللغة ولهجاء نسبة كبيرة من أحرفها.

فكلام الإمام الحسين بن القاسم العياني عندما يقول: (إن هذا الكلام من الأساليب التي في اللغة) فهو إنسان مُلِم باللغة، وله تفسير لغوي لكنه ليس متكاملاً، هو إنسان عنده سعة في اللغة، وأساليب اللغة، ومفردات

اللغة، يذكر هنا بأن العبارة ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ تأتي بشكل مستقبَل وهي ماذا؟ وهي تعني الماضي بالنسبة لنا، هي حكاية تعني الماضي، لكن وتجد بالنسبة لواقع وجود عيسى ألست تجدها حالة مستقبلية؟ بمعنى من كانوا يؤمنون به أو من سيؤمن به كان يؤمن به، ستراه حالة مستقبلية أثناء فترة عيسى، أي: أن مِن أهل الكتاب مَن هم مؤمنون به، كل من آمن به أو كل من سيؤمن به إنما سيؤمن به في حياته، ويكون شهيداً عليه كمؤمن به في حياته، الآن لو رجعتَ إلى فترة عيسى لرأيتَها فترة مستقبلية، وهنا لا يحكي مجرد قضية، بل يحكي ما كان يحدث داخل تلك المرحلة، أي: لو كنتَ في عصر عيسى لكنتَ ستقول: كل واحد سيؤمن بعيسى سيؤمن به، ألست ستقول هكذا؟ وممن يؤمن به سيكون شهيداً عليه في حياته، أي: على من آمن به في حياته.

وليس المعنى أنه سيؤمن به كل أهل الكتاب، هذه بعيدة، والقرآن الكريم يُبيِّن في آيات أخرى ما يستوحى منها بأنه سيبقى بقايا يهود ونصارى، بل ربما تبقى معتقدات من هذه لديهم، وإن كانوا في ظرف من الظروف لظهور الإسلام قد يكونون فئة قليلة، فهنا قال: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(المائدة:١١٦) أي: أنه سيقولها يوم القيامة، وأن القضية ستستمر في المسيحية إلى (الله أعلم) ولو أسلم منهم من أسلم قد يبقى منهم من يبقى ويبقى على العقيدة التي لديهم، إذاً فالخلاصة في موضوع عيسى هو هذا.

وهي ليست قضية سائدة عند الزيدية قد تكون دخلت متأخرة في بعض الفنون المتأخرة وكأنها تسربت، هي سائدة داخل نسبة كبيرة من المسلمين، بل وفي السُّنية أيضاً رأيتُ بحثاً لأحد المصريين في مجلة (التقريب بين المذاهب) استبعدَ ذلك فيه، له كلام حوالي صفحتين تقريباً في إطار حديث آخر بيَّن استبعاد أن يعود المسيح فعلاً. لكن السائد هكذا: أنهم يعتقدون – داخل النصارى وداخل نسبة كبيرة من المسلمين بما فيهم الاثنا عشرية – أن المسيح سيعود.

نحن نقول: ليس هناك ما يدل على هذا، الله على كل شيء قدير، لكن ليس هناك ما يدل على هذا نهائياً، وما دام أنه لا يوجد ما يدل عليها ويجعل الإنسان يطمئن إليها فلا يصح أن تصبح عقيدة يعتقدها الناس نهائياً، بل يوجد ما يدل على بُعدها أن تكون قضية – فعلاً – حقيقية.

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(النساء:١٦٠) ما زالت هذه الآية عائدة على الكلام السابق ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾(النساء:١٥٥) ثم ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ هذا الظلم الذي ذكر تفصيلاته بسبب نقضهم ميثاقهم وكفرهم وأشياء كثيرة ذكر مما وقع عليهم من العقوبات: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ إذاً، عندما يسلك الناس طريقة بني إسرائيل – وإن لم يكن هناك تحريم (لم يعد هناك وحي حتى يأتي تحريم) – قد تُرفع طيبات نهائياً، هل يوجد مع الناس سمن بلدي، وعسل بلدي، وقمح بلدي، وأشياء من هذه؟ أليس هناك كثير من الطيبات قد رُفِعَت؟

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾(النساء:١٦٠، ١٦١) لاحِظ كم يحكي عنهم من أشياء سيئة؟! ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء:١٦١) لصدهم عن سبيل الله، معناه أنهم يعملون دائماً في هذا الموضوع: صد عن سبيل الله أيام الأنبياء منهم وأيام نبوة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في عصره ومن بعده إلى اليوم: الصد عن سبيل الله مثلما قال هناك: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(آل عمران:٩٩) صَدّ، أي: دفع الناس، إبعادهم عن سبيل الله يوقعهم في سبل ضلال أخرى ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾(النساء:١٦٢) وهو يذكر مسيرة تعود إلى عمق تاريخهم عندما يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾(النساء:١٥٥) وبكذا... ألم يَعُد إلى عمق تاريخهم؟

لكن يُبيِّن أنه كان أيضاً يُوجَد نوعيات جيدة في تاريخهم، مثلما قال سابقاً: ﴿لَيسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣) ثم هنا أيضاً قال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هؤلاء أسلموا ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:١٦٢).

أنت تجد هذه الطريقة موجودة في القرآن: كلما يذكر أشياء عن أهل الكتاب وعن اليهود يذكر أشياء كثيرة ثم يأتي بنوعيات جيدة منهم، ماذا يعني هذا؟ مثلما قلنا سابقاً من قيمته في كيف يكون موقف الناس منهم، لا تتحول القضية إلى شخصية لديك، بل موقف في سبيل الله ومن أجل الله وعلى أساس دينه، هذا مهم جداً، أيضاً ماذا؟ أن يفهم الناس أن هذه الرسالة عالمية بما فيهم اليهود هم والنصارى أن يفهموا أن هذا الدِّين ليس ديناً قومياً، ليس ديناً يختص بالعرب، أو يختص بجنس أبيض أو أحمر أو أسود، هو دين عالمي للعالمين جميعاً،

ومنطقه منطق قسط وعدل مع الناس جميعاً، فليس لديه موقف شخصي من اليهود، إنما لِمَا هم عليه، فلو اتجهوا وآمنوا فسيكون موقفه منهم كما كان موقفه من المؤمنين الذين حكاهم هاهنا: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:١٦٢) وإن كان يهودياً سابقاً، وإن كان نصرانياً سابقاً، وإن كان ما كان سابقاً.

هذه القضية هامة جداً بالنسبة للمسلمين؛ لأنها تقاوم الفكرة التي حصلت عند بني إسرائيل في تأطير الدِّين في إطار قومي، فسموا دين الله (يهودية) وسموا دين الله (نصرانية) ألم يحصل هذا؟ تبيَّن من خلال الآيات السابقة ما ظهر من سلبيات ومواقف خاطئة لديهم على أساس هذا التأطير القومي للدِّين، حتى جعلوا عنوانه عنوان (قومية) فلْيترفع المسلمون عن هذه تماماً؛ لأن الدِّين عند الله هو الإسلام، اليهودية لا تعني عنواناً لدين سماوي على الإطلاق، والنصرانية لا تعني اسماً لدين سماوي على الإطلاق، دين الله اسمه الإسلام، دين الله هو للناس جميعاً، ولا يقوم على أساس مواقف شخصية من أيِّ جنس من عباد الله، من البشر جميعاً، في أيِّ مكان كانوا.

لها أثر تربوي هام وقضية هامة جداً يقوم عليها مواقف كثيرة، وتشكّل ضمانة هامة جداً لموقف ثابت منهم؛ لأنه إذا أصبح - مثلاً - من خلال هذا السرد الذي يُبيِّن أنهم فئة سيئة، أليسوا سيئين؟ لكن لو تتحول المسألة عندك إلى عداء شخصي سيُضرَب هذا العداء في يوم من الأيام على أيديهم عندما يُقدِّمون مصالح معيَّنة فالإنسان يتأثر بالإحسان، لكن عندما يكون موقفك موقفاً دينياً ثابتاً ليس موقفاً شخصياً وغضباً شخصياً وعداوة شخصية هكذا، عندما يكون موقفك على أساس أنهم هكذا فلو قدَّم لك إحساناً كم ما قدَّم لن يتغير موقفك، ولن تتأثر بما يُقدِّم من مصالح مُعيَّنة في بلادك مهما قدَّم من مصالح هو على هذا النحو، هذه المصالح هي في قائمة عمله السيئ. العداوة الشخصية مهما كانت ستمسح بأيِّ مشروع خدمي، وفي الأخير لا تدري إلاّ وقد أصبحتَ تثني عليهم حتى لو لم يقدِّموا لك إلاّ كرسياً لمدرسة سوف تثني عليهم.

هنا ليس لدينا موقف شخصي منهم، القضية التي أمامنا جميعاً نحن وهم ما هي؟ أن نؤمن بدين الله ونسلِّم لله، أليست هذه القضية ثابتة؟ وهم عندنا كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾(البقرة:١٣٧) أليس الإسلام على هذا النحو: أن مَن دخله أصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم؟ وألاّ يصبح - مثلاً - الموقف الدِّيني مؤطَّراً في إطار شخصي منهم وموقف شخصي، لا، يجب أن تُمسَح المواقف الشخصية تماماً، عندما تَمسح من نفسك الموقف الشخصي يُصبح غضبك عليهم وقوتك في مواجهتهم كلها من منطلق ماذا؟ مِن منطلق دين، وليس من منطلق شخصي، هنا فيما لو اتجَه أحد منهم وأصبح لديه قابلية أن يُسلِم، إن كان قد ترسَّخ عندك موقف شخصي فقد تحاول أن تصده عن الدِّين؛ تريد أن تضربه، وإذا كان موقفك دينياً فهو لا يحول دون أن تكون قوياً وذا بأس شديد، وغضب شديد عليهم، لكن لن يجعلك تصد من يمكن أن يؤمن منهم، أو يستجيب للإيمان منهم.

ثم أنت لا تَكُنْ مواقفك في الأخير: أن تؤطِّر الدِّين في إطار قومي، عندما يأتي بهذا التوجيه معناه إبعاد الناس عن أن يُؤطِّروا الدِّين في إطار قومي؛ لأن هذا في حد ذاته يشكّل عائقاً كبيراً أمام الأمم الأخرى، أمام الناس؛ لأنه دين للعالمين؛ فيجب أن ينظر الناس إليه جميعاً بأنه لهم، وأنه ليس ديناً يختص بفئة مُعيَّنة، ولا بجنس مُعيَّن، ولا بعرق مُعيَّن، ولا بمنطقة مُعيَّنة؛ فينجذبوا إليه.

أيضاً فيه أن الموضوع مهما قُدِّم يجب أن يُرفَق بأسلوب دعوة (يدعوهم) مثلما يأتي في آيات أخرى، قلنا في هذا الموضوع: نفس القرآن يُعتبَر دعوة كاملة بالإضافة إلى ما يمكن أن يعمله الناس في مجال دعوة لهم، لكن نفس القرآن يُعتبَر دعوة، وهو منتشر، وما يمتلك الناس من وسائل يمكن أن تصل إليهم، لكن يجب ألاَّ يُغفل هذا الموضوع - ولو في المستقبل - أمام الناس؛ لأن الناس إذا أطّروا الدِّين هنا في إطار قومي، أعطى الطغاة والمضللين هناك عندهم منطقاً آخر: يشدون الناس إلى أن القضية قضية أمة في مواجهة أمة أو حضارة في مواجهة حضارة - كما يقولون - أو جنس في مواجهة جنس، عندما يكون خطابك هو خطاباً دينياً فهذا الدِّين العظيم والراقي هو للناس جميعاً يمكن أن يدخلوه ويسع الكل.

﴿إِنَّا أَوحَينَا إِلَيكَ كَمَا أَوحَينَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوحَينَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾(النساء:١٦٣) فلستَ بِدعاً من الرسل كما قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾(الأحقاف:٩) الوحي الذي

إليك هو كما أوحى الله إلى نوح وإبراهيم وإسماعيل...إلى آخر الآية، بل هناك من كلّمه الله من أنبيائه، أي: فهل أن تكون نبياً يُوحَى إليك قضية يستنكرها بنو إسرائيل؟ هم يعرفون مسألة الوحي، وأن الله يوحي إلى أنبيائه بل أن الله كلّم موسى، أليس التكليم يُعتبَر أبلغ من موضوع الوحي؟ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(النساء:١٦٤) هذه سُنة إلهية ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥) هذه سُنة إلهية؛ لأنه رحيم بعباده يُقدِّم لهم ما فيه هدى ما هو بشارة وإنذار: رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل، بعد الآيات البينات، بعد البلاغ المبين ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٥).

﴿لَكِنِ اللَّهُ﴾ وإن أنكروا هم رسالتك وجحدوها مع أنها ليست غريبة، وهم يعرفون هم أن هذه سنة إلهية، أن هناك رسلاً يُوحَى إليهم بل هناك مَن كلّمه وهو نبي الله موسى، فلا تكترث فالله يشهد ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيكَ﴾(النساء:١٦٦) أنه من عنده وأنك رسول له.

هذه قضية هامة من الناحية التربوية، وفي مجال الدعوة أيضاً، أحياناً بعض الناس "بيحنب نفسه"[1] حتى لا يكاد يرى عظمة ما لديه إلاّ إذا آمن به الآخرون واقتنعوا به، لا، يجب أن تكون واثقاً بما أنت عليه، والآخرون حتى لو جحدوا كلهم لا يهزك في ثقتك بما أنت عليه.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(النساء:١٦٦- ١٦٩) أي: في الوقت الذي أنت – مثلاً – لا ترى الطرف الآخر اقتنع بما لديك وآمن بما عندك، فلا تهتز ثقتك بما عندك، ولتكن رؤيتك إليهم بأنهم على هذا النحو: صادّين، هم قد ضلوا ضلالاً بعيداً وعاقبتهم هكذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾(النساء:١٦٨، ١٦٩) وطريق جهنم هي طريق ضلال: ضياع هنا في الدنيا وفي الآخرة، هذه القضية هامة بالنسبة للناس، أحياناً عندما مثلاً لا ترى الآخرين يقتنعون بما أنت عليه، في الأخير تصنف ما لديهم فتراهم وكأن لديهم نقاط قوة وكأنهم إذاً ربما مسيرتهم هي المسيرة التي ستكون فاعلة في الحياة وأنت ستضيع؛ لأنهم لم يقبلوا إذاً لم يقبلوا ولديهم كل ما قد يجعل مسيرتهم يهتدون فيها إلى نجاحات! في الأخير تتراجع.

هنا يُقدِّم صورة هامة جداً بأن الطرف الآخر وإن لم يقتنع، فاعرف بأنه طرف سيتلاشى في مسيرته، ليس لديه نجاحات، لن يحقق نجاحات؛ ولهذا يقول: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾(النساء:١٦٨، ١٦٩) وطريق جهنم تراها هي طريق خسارة في هذه الحياة قبل الآخرة؛ لأنك لو تلاحِظ كيف كان الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كان إنساناً قوياً مهما قيَّم واقعه والناس من حوله قليل وإمكانياتهم قليلة، كان لديه روح قوية وروح طموحة جداً، لماذا؟ لأنه يؤمن بالواقع على هذا النحو الذي قدَّمه الله له، أنه عندما يرسل رسالة إلى ملك الروم، ويرسل رسالة إلى مَلِك الفرس وقالوا إنه مزقها، استخف به ملك الفرس (كسرى) استخف به (كيف تجرَّأ أن يرسل إليه برسالة ويُقدِّم نفسه عليه؟!) كأنه قال هكذا، افرض مثلاً لم يأتِ لك جوابات إيجابية وهو هنا قد تناول أمتين كبيرتين جداً، هو يعرف أن هؤلاء سيتلاشون، هل تراجع أو يقول كيف رسالتي عالمية وأمامي هذه العوائق الكبيرة: دولة الروم ودولة الفرس؟! وبعد أن يرسل إليهم برسالة استخفوا، لكن موقفه موقف الواثق من نفسه ويعرف واقعهم على ما قدَّمه الله له.

لو كان – مثلاً – قيَّم المسألة بشكل آخر مثلما يحصل عند الكثير من الناس الآن ومن قبل الآن هو يرى بأنه رسالة عالمية (لكن كيف نعمل؟!) ثم يقول: (إذاً ليس الوقت مناسباً الآن، سننتظر إلى أن تنهار تلك الدولة أو تلك الدولة) هنا أعطاه واقعهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾(النساء:١٦٧) هذه خسارة هم سيخسرون وهو عارف، هو فاهم أن الخسارة من هنا من هذه الدنيا، وهذه قضية خسرناها – فعلاً – في ثقافتنا: أن نفهم أن الخسارة هي من هنا بالنسبة للأعداء، يقولون: (في جهنم، جهنم هناك لكن هنا ماذا نعمل؟ ولا يوجد لدينا كذا) وإذا بنا قد أصبحنا منتظرين نحن وإياهم، نظن أنهم سيدخلون إلى جهنم ونحن سنذهب إلى الجنة!

هي هكذا الرؤية، هذه الرؤية لا تترك الناس يعملون في الدنيا شيئاً؛ لأنهم أصبحوا يرون العدو بالشكل الذي كله قوة، كله صخرات، كله جدار صلب، لم يعرفوا الواقع على ما يقدِّمه الله: أنهم سيخسرون سيضلون

(١) بيحنب نفسه: من اللهجة العامية، وتعني: يضع نفسه في مأزق.

سيضيعون هنا، ورسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) عندما كان فاهماً للدِّين حقيقة، وليس على أساس ما قدَّمه الآخرون، ثم يقولون: إنهم مقتدون به! هم ليسوا مقتدين به، بل بعيدين جداً عن الاقتداء به، ولا يعرفون رؤيته للحياة وللواقع وللإنسان ولهذا الدِّين بكله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾(النساء:١٦٨) لأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً ولن يهتدوا طريقاً، طريق فلاح ونجاح...إلخ، إذاً سيراهم بأنهم سيتهاوون، ألم يعمل - فعلاً - وهيأ الناس في عصره إلى أن يكونوا بالشكل الذي يحطمون تلك الدول؟ حطموا دولة فارس ودولة الروم، وفعلاً رأيناهما تحطمتا، ألم تتحطما على يده؟

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَبِّكُمْ﴾(النساء:١٧٠) فهذا هو الحق، وهذا الذي يعطي رؤية حق، ويكشف الواقع الحق، بالنسبة لمن يكونون مؤمنين، وبالنسبة لمن يكونون متخاذلين، وبالنسبة لأعداء الله الآخرين. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للكل؛ لأنه قدَّم هنا الحق بالنسبة لكل فئات الناس: يذكر المؤمنين وكيف سيكونون ومصيرهم، والمنافقين وكيف هم ومصيرهم، والكافرين وكيف هم ومصيرهم، واليهود والنصارى وكيف هم ومصيرهم، هذا هو الحق الذي لا يتخلف، وكل واحد يعرف مصيره ﴿فَآمِنُوا خَيرًا لَّكُمْ﴾(النساء:١٧٠) بالنسبة للمؤمنين، آمِنوا، كما قال في بداية الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾(النساء:١٣٦) إلى آخر الآية، وبالنسبة للآخرين يعرفون أن ما قاله عنهم هو واقع لا يتخلف.

أليسوا هم سيرون واقعاً سيئاً؟ تهديد وضلال وأنهم سيكونون في ضلال وخسارة وعذاب مهين، وأشياء من هذه، الأفضل للجميع كلهم الناس جميعاً أن ماذا؟ أن يؤمنوا ﴿فَآمِنُوا خَيرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٧٠) هو غني عنكم وسيوقع بكم كل ما حكاه من تهديد ووعيد سيوقعه وهو غني عنكم، له ما في السموات وما في الأرض ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ كلام كثير حول أهل الكتاب؛ لأنهم هم - دائماً - من يُحرِّكون، أي: الصدّ عن سبيل الله، الآن أليس أهل الكتاب هم من يُحرِّكون الدنيا الآن ومؤامرات وخبث وأشياء؟ أليس أهل الكتاب هم الذين يتصدرون لهذه القضية؟ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾(النساء:١٧١)؛ لأنه هناك قدَّم بالنسبة لهم وعيداً حاسماً فيما يتعلق بالآيات السابقة: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾(النساء:١٦٨) فهنا عندما غَلَوا في دينه، مثلاً في موضوع ولائهم لعيسى أو إيمانهم بعيسى وصلت المسألة إلى درجة أن يقولوا: إله، ويجعلوا الله ثالث ثلاثة! هذه لن تدفع عنهم العقوبة التي وعدهم الله بها.

﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وليس إلهاً، هو رسول الله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(النساء:١٧١) هو الذي نفخ في مريم هذه الروح كما يقول عن بقية عباده: ﴿فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي﴾(الحجر:٢٩) ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ﴾(السجدة:٩) في أكثر من آية يذكر نفخ الروح.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾(النساء:١٧١) ومنهم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) خاتم رسله وخاتم أنبيائه ﴿وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ﴾ هذه قدَّموها كعقيدة دينية لديهم في موضوع المسيح أن الله عبارة عن ثلاثة: الله، المسيح، وروح القدس ﴿انتَهُوا خَيرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾(النساء:١٧١) هذه دعوة لهم إلى أن ينتهوا عمَّا هم عليه، وبعدما هدد سابقاً؛ وليعرفوا بأنه لا يمكن أن يكون في هذا ما يشكّل وقاية لهم مما توعدهم به، وأن عليهم أن يوحِّدوا الله.

المسيح الذي يجعلونه إلهاً هو نفسه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، فلماذا أنتم تستنكفون أن تجعلوه عبداً لله وهو نفسه لن يستنكف؟! ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾(النساء:١٧٢، ١٧٣).

حتى ما يزعمونه هم: إذا قد أصبحتَ تحب المسيح - هم يعتقدون هكذا يكفي - إذا قد صار يحب المسيح فسيدخله المسيح جنة أبيه، قالوا: إن الله ضحى بابنه تكفيراً لخطيئات المؤمنين به، هذه عقيدة رهيبة جداً سيئة وليست معقولة على الإطلاق، يقول: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ﴾(النساء:١٧٤) أليست هذه البراهين واضحة جداً؟ وأشياء متكررة مثلما قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(الروم:٥٨) لا تكون فقط عبارة عن "خَطْفَة"[1] أو خَطْفَة كلمة، بل هدى، براهين متكررة، براهين معززة بالأمثلة، براهين واضحة جداً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ في مختلف القضايا ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾(النساء:١٧٤) القرآن الكريم، هذا أيضاً يوجه إلى الناس، بعدما قد ذكر الناس بمختلف فئاتهم ذكر بأن هذا القرآن هو للناس، وعندما تعلم بأنه للناس فإن الله جعل الأمور بالشكل الذي يجعله فعلاً ممكناً أن يكون للناس، مثلما قال في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(التوبة:٣٣) يقول إن الله سبحانه وتعالى بقدرته وهو مَلِك السموات والأرض وله ما في السموات وما في الأرض وهو الغالب على أمره إلى آخر ما ذكره عن نفسه، لا تكون القضية لديه مجرد أمنية، بل إنه يرسم الطريق بالشكل الذي يجعله فعلاً للناس ويشمل الناس، وأنها قضية ستتحقق فعلاً عندما يقول: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(التوبة:٣٣).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾(النساء:١٧٤، ١٧٥) لا بُد من الاعتصام به وإلاّ فلا يوجد رحمة نهائياً ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ومن الفضل أن يكونوا ممن يأتي بهم بديلاً عمَّن يقعدون عمَّن ارتدوا مثلما قال في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَومَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾(المائدة:٥٤) ألم يقل هكذا؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾(النساء:١٧٥) يمنحهم فضلاً، هناك قال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة:٥٤). ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(النساء:١٧٥) طريق واضحة وطريق ثابتة.

ثم ذكر فيما يتعلق بالمواريث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾(النساء:١٧٦) مثلما نقول في أكثر من مقام: استفتاءات؛ لأن المفروض والشيء الطبيعي أن من يأتي بالبيان على هذا النحو، بيان بشكل متكرر وشامل هل ستحتاج إلى أن تُقدِّم سؤالاً في قضية: كيف الكلالة؟ هنا يُقدِّم القضايا الواضحة، لكن ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ولهذا غالباً ما تأتي الإجابة في هذه الاستفتاءات بشكل غير معروف ليس فيه جواب عليهم؛ لأنها قضية يجب أن تعرفها من المقدمة؛ لأنه بالنسبة لله ليست القضايا تحتاج إلى استفتاءات: ما هو رأي الله؟ أو تقول: ماذا في موضوع كذا؟ هو يتناول كل القضايا، كيف يمكن أن ينسى قضية كهذه؟! لأن روح الاستفتاءات وهذه النظرة هي تنبي عن ماذا؟ عن قلة معرفة بالله سبحانه وتعالى، وعن قلة معرفة بالنمط الذي يُقدَّم عليه هداه، أنه يجعلك بالشكل الذي تثق أن كل قضية سيتناولها وإن لم تستفتِ.

هذا رسول الله موجود لديهم والقرآن يتنزل وهو على هذا النحو ولا يزال لديهم استفتاءات، ولاحِظ هنا الجواب: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ﴾(النساء:١٧٦) إن المطلوب أن يفهموا منك ويركّزوا على أن يصغوا ويتفهموا ويتوجهوا وكل شيء سيأتيهم، وكل شيء في وقته، لكن عندما يأتي شخص في رأسه: كيف حكم الكلالة؟ وهو يسمع رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يقول أشياء كثيرة وهو ينتظر حتى يكمل من أجل أن يسأله، أليس هذا معناه أنه لن يسمع شيئاً؟ معناه: لا يَكُنْ لديك روح تساؤلات؛ لأن روح التساؤل تكون على حساب روح الإصغاء والتفهم.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَينِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَينِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ هنا يُبيِّن وبدون استفتاءات ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ لئلا تضلوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾(النساء:١٧٦) بكل شيء عليم، لا تقول: ربما أنه لا يدري بالكلالة وكيف حكمها وأشياء من هذه.

هذه الإجابة: ﴿أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ﴾ أخت ممكن أن تكون أختاً من أب، أختاً من أم، أختاً من أم وأب، ألا يمكن أن تكون هكذا؟ إنما في الأخير على أساس أن الكلالة هنا والكلالة هناك، أخذوا منها أن هناك معناها: الإخوة لأم، وهنا معناها: الإخوة من أب، أو من أم وأب، أليسوا أيضاً احتاجوا؟ لم تقدَّم القضية هنا؛ ليفهم الناس مثل طريقة: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(البقرة:١٨٩) حتى لا يأتي الجواب بالشكل الذي

(١) خَطْفَة: هي الشيء الذي يمر بسرعة.

تقول: يكفي وَضّحَهَا، أما الآن الحمد لله ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾(البقرة:٧١) هنا يرفع الناس عن حالة بني إسرائيل ونفسياتهم: أسئلة، أسئلة، أسئلة، ثم في الأخير يقول: الآن جئت بالحق.

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ امرؤ تشمل رجلاً وامرأة ﴿هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولد يشمل ذكراً وأنثى، أليس كذلك؟ ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ هنا يمكن أن يقول: (لكن احتمال أن يكون كذا، ويكون...، ربما قد تكون: أختاً من أم وأب، أو أختاً من أب، لم يوضحها) لأنك يجب أن تتفهم بأن الله بكل شيء عليم وسيقدِّم الأشياء واضحة بطريقته هو سبحانه وتعالى؛ لأنه أحياناً لو يأتي جواب واضح لكان معناه: (أرأيتم لو لم يسأل؟) فيكون معناها ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وإذا كل واحد في نفسه مسألة بسيطة تشغل ذهنه: منتظر حتى يكمل رسول الله الكلام.

إذاً فهذا الكلام الهام الذي يكشف بأنه لا يمكن أن يُغفِل شيئاً مما الناس بحاجة إلى معرفته وينزل في واقع حياتهم إلاّ ويأتي به هو من عنده؛ لأنه قال هنا: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾(النساء:١٧٦) بما فيها الكلالة، هنا ليس باستطاعته أن يقول: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾(البقرة:٧١) لأنه جاء الجواب بالشكل الذي بقي فيها، ولا يدري كيف، أليست بهذا الشكل؟ وفعلاً، فقهياً هي بهذا الشكل، فقط في الأخير جمعوا من هنا، وجمعوا من هناك، من الكلالة هنا – قد ذكر الكلالة سابقاً – قالوا: إذاً يمكن هنا الإخوة من أم وأب أو لأب، وهناك الإخوة من الأم.

ومعناه: أن يترفع الناس عن هذا بشكل عام، أي: هذه كتربية قرآنية، تربية قرآنية تقوم على أساس أن هدى الله واسع ويُقدَّم ببراهين واضحة جداً، كما قال سابقاً: برهان، ونور مبين، وأشياء واضحة جداً، يكون الشيء الذي يهم الإنسان وهو يستمع لهذه البراهين والبينات الشاملة التي تُبيِّن – إذا صحت العبارة – اهتماماً كبيراً جداً في هذا الهدى، يتناول كل شيء، أن تصغي، تصغي؛ لأنه إذا لم يحصل إصغاء فسيأتي غلطات كبيرة جداً.

لن تكون مشكلة كبيرة إذا لم تكن عارفاً لحكم الكلالة، الكلالة قضية نادرة في الحياة أولاً، في المجتمعات تكون قضية نادرة، ألا تكون نادرة أساساً؟ ليس لديه لا أولاد ولا والدان، تكون نادرة.

إذاً إن تشغل نفسك بقضية قد تكون نادرة في الحياة وهي قضية هامشية وتكون على حساب أن تتفهم القضايا الهامة فستضل في القضايا الهامة وتضيع، ولن ينفعك معرفة تفصيل شيء هامشي أو جزئي في إطار إضاعتك للأشياء الهامة وأنت مركّز على روح التساؤل وتبتعد عن روح التفهم والإصغاء والاهتمام.

الله يوفقنا جميعاً لِمَا فيه رضاه، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الـمـوافــق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

الله أكبر
الموت لأمريكا
الموت لإسرائيل
اللعنة على اليهود
النصر للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

قاطعوا
البضائع الأمريكية
و
الإسرائيلية

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفة الله				
الثقة بالله ـ الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١ـ ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ ـ ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧ـ١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤ـ١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥ـ١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦ـ١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥ـ٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥ـ٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢ـ٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة ـ٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣ـ٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢ـ١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١ـ آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ ـ ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣ـ١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ ـ آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ ـ ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ ـ ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ ـ آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ ـ ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ ـ ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ ـ آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ ـ ١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨ـ١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣ ـ آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ